جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

البلاغة الصوتية
فى بعض قصار سور
القران الكريم

الدكتورة
منى عبد اللّه على فراج
المدرس بقسم البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببنى سويف

العدد الثالث والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م
الجزء التاسع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050
الترقيم الدولى الإلكترونى ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

البلاغة الصوتية فى بعض قصار سور القران الكريم

إن قضية الإعجاز الصوتي فى القرآن الكريم ،هى من القضايا التى لم تنل القدر الكافى من عناية الباحثين ،فإن للصوت اللغوى أهمية فى دراسة النص القرآنى ،من حيث إنه البنية اللغوية الصغري المكونة للكلمات والتراكيب والآيات ،إلى جانب ذلك فهو عنصر أساس فى الإعجاز القرآني، والقرآن ينتقى الأصوات اللغوية بحسب الدلالات بغرض تجسيد المعاني فى أحسن صورة

و القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،أعجز العرب فصحاء اللسان ،وأساطين البيان ،فلم يستطيعوا مجاراة أساليبه الرفيعة البديعة ؛ولأن القرآن الكريم كلام بليغ بلا منازع ،وبحر شاسع بلا قرار، فلا أحد ينكر أن فى أسلوب القرآن الكريم جوانب جمالية يبهر بها السامع والقارئ ، ومن بين هذه الجوانب الجانب الصوتى ، وانطلاقا مما سبق ،واستكمالا لجهود العلماء والباحثين فى إظهار الجوانب الإعجازية فى البيان القرآنى ،شرفت باختيار هذا البحث الموسوم بـ(البلاغة الصوتية فى بعض قصار سور القرآن الكريم) ويتناول هذا البحث سورة التكاثر وسورة القارعة وسورة الناس دراسة بلاغية صوتية تبحث فى البلاغة الصوتية لألفاظ هذه السور الكريمة ،من حيث النظر فى صفات الأصوات من جهر وهمس ورخاوة وشدة وتأثير ذلك على معني الكلمات ،ومن ثم أثر هذه الصفات على بلاغة اللفظ ،ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتية كالنبر والتنغيم ،ثم من حيث النظر فى مخارجها المختلفة ، والنظر فى العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتى للكلمة ومناسبتها لسياقها .

الكلمات المفتاحية : البلاغة الصوتية ، سور القرآن ، الجانب الصوتي ، البلاغة .

دكتورة / منى عبد الله على فراج

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببنى سويف

Email: dr-monaaabdalla@yahoo.com

Abstract

Phonetic rhetoric in some of the short text of the Holy Quran

The issue of phoneme miracles in the Noble Qur'an is one of the issues that have not received enough attention from researchers, because the linguistic voice is important in studying the Qur'anic text, in that it is the small linguistic structure consisting of words, structures, and verses, besides that it is an essential element in the Qur'anic miracle. The Qur'an selects linguistic sounds according to semantics in order to best embody meanings

And the Noble Qur'an is the word of God that falsehood does not come from his hands or from behind him, the Arabs are incapable of the tongue, and the masters of the statement, they could not keep up with his exquisite methods, and because the Qur'an is uttering indisputable rhetoric, and a vast sea without a decision, no one denies that in the style The Holy Qur'an is aesthetic aspects to which the listener and the reader are astonished, and among these aspects is the audio side, and based on the foregoing, and to complement the efforts of scholars and researchers in showing the miraculous aspects of the Qur'anic statement, I was honored by choosing this research tagged with الصوتية (phonetic rhetoric in some of the short chapters of the Holy Quran) and deals with this Find Surah Reproduction and Su The Qur'an and Surat al-Nas is a phonetic rhetorical study looking at the phonetic rhetoric of the words of this generous fence, in terms of looking at the characteristics of sounds from speaking out, whispering, slackness, intensity, and the impact of that on the meaning of words, and then the effect of these attributes on the rhetoric of pronunciation, and in terms of what accompanies the word when uttering it From phoneme phenomena such as accent and toning, then in terms of looking at their various exits, and looking at the relationship between these phonemic features of the phoneme formation and its relevance to its context.

Key words: phoneme rhetoric, Quranic verses, phoneme, rhetoric.

Dr.

Mona Abdullah Ali Farraj

The teacher at the Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls, Beni Suef

Email: dr-monaaabdalla@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله معلم الإنسان ما لم يعلم ،ومنزل القرآن الكتاب الأعظم المعجز بنظم آياته وتناسب سوره وفواصله ،فهو رسالة ،الإسلام الخالدة على مر الأزمان ، وسر من أسرار البلاغة والبيان ، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى ، أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا ، وأقواهم حجة وبرهانا وبعد:

إن قضية الإعجاز الصوتي فى القرآن الكريم ،هى من القضايا التى لم تنل القدر الكافى من عناية الباحثين ،فإن للصوت اللغوى أهمية فى دراسة النص القرآنى ،من حيث إنه البنية اللغوية الصغري المكونة للكلمات والتراكيب والآيات ،إلى جانب ذلك فهو عنصر أساس فى الإعجاز القرآني، والقرآن ينتقى الأصوات اللغوية بحسب الدلالات بغرض تجسيد المعاني فى أحسن صورة

و القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،أعجز العرب فصحاء اللسان ،وأساطين البيان ،فلم يستطيعوا مجاراة أساليبه الرفيعة البديعة ؛ولأن القرآن الكريم كلام بليغ بلا منازع ،وبحر شاسع بلا قرار، فلا أحد ينكر أن فى أسلوب القرآن الكريم جوانب جمالية يبهر بها السامع والقارئ ، ومن بين هذه الجوانب الجانب الصوتى ، وانطلاقا مما سبق ،واستكمالا لجهود العلماء والباحثين فى إظهار الجوانب الإعجازية فى البيان القرآنى ،شرفت باختيار هذا البحث الموسوم بـ(البلاغة الصوتية فى بعض قصار سور القرآن الكريم) ويتناول هذا البحث سورة التكاثر وسورة القارعة وسورة الناس دراسة بلاغية صوتية تبحث فى البلاغة الصوتية لألفاظ هذه السور الكريمة ،من حيث النظر فى صفات

الأصوات من جهر وهمس ورخاوة وشدة وتأثير ذلك على معني الكلمات ،ومن ثم أثر هذه الصفات على بلاغة اللفظ ،ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتية كالنبر والتنغيم ،ثم من حيث النظر فى مخارجها المختلفة ، والنظر فى العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتى للكلمة ومناسبتها لسياقها

وقد جاء البحث فى مقدمة ذكرت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له ،والمنهج المتبع فى البحث، وتمهيد تناولت فيه معنى البلاغة الصوتية، وأهمية البلاغة الصوتية ، والبلاغة الصوتية عند القدماء والمحدثين ، وثلاثة مباحث: المبحث الأول بعنوان : البلاغة الصوتية فى سورة القارعة، والمبحث الثانى بعنوان: البلاغة الصوتية فى سورة التكاثر، والمبحث الثالث بعنوان : البلاغة الصوتية فى سورة الناس ، وقد اتبعت منهج التذوق والتحليل الصوتى لهذه السور الكريمة وقدمت لكل سورة بتقديم وموجز بين يدى السورة تناولت فيه اسم السورة ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من سور القرآن الكريم وسبب نزولها مكية أو مدنية ، ثم البلاغة الصوتية فى السورة ثم أردفت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها ثم فهرس المصادر والمراجع

وفى الختام أتوجه إلى الله الكريم المنان ، بديع السموات والأرض ، بعملي هذا خالصا لوجهه الكريم، والذى أرجو أن يزين لى به صحيفتي يوم الدين ، فأحتسب أجرى عنده ، فتوفيقي منه سبحانه وتعالى، وقبوله لى منة وفضل من كرمه، فهو وحده الكريم ، والهادي إلى الصراط المستقيم

والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه وذريته ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

التمهيد

ا- معنى البلاغة الصوتية

إذا كان إعجاز القرآن الكريم فى نظمه وبناء أصواته وكلماته ، فإن بداية نسجه وتأليفه من "الصوت" تلك الوحدة الصغري التى تشكل بناء الكلمات ، وهذه الكلمات تشكل بدورها بناء الجمل والتراكيب التى يكون لكل منها معنى مفيد ومستقل بنيويا .

ومصطلح "الصوت" فى الدراسات التراثية العربية يقابل الحرف [١] ، وحتى عند بعض المحدثين، فلا فرق بينهما .

تعريف الصوت :

<u>للصوت دلالة لغوية ،ودلالة اصطلاحية .</u>

أ-: الصوت لغة :"من صات يصوت صوتا فهو صائت ،ومعناه : صائح ،ورجل صائت حسن الصوت شديده ،ورجل صيت: له ذكر حسن قال ابن السكيت: الصوت صوت الإنسان وغيره [٢]

ب-: الصوت اصطلاحا :

والصوت كما عرفه الجاحظ (هو آلة اللفظ ،وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت)[٣] ، وعرفه إبراهيم أنيس منصور

---

(١) ينظر سر صناعة الإعراب لابن جنى تحقيق مصطفى السقا وآخرين ج١ ص ٦ مطبعة البابي القاهرة سنة ١٩٥٣

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة صوت طبعة دار المعارف .

(٣) ينظر البيان والتبيين للجاحظ تحقيق فوزى عطوي ج١ ص ٥٦ طبعة بيروت .

بقوله: (الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها ،فكل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ،على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين فى بعض الحالات)[١].

وقد عرف "ابن جني" الصوت اللغوى بقوله :(عرض يخرج من النفس مستطيلا متصلا حتى تعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا ،وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها)[٢]

كما عرفه ابن سينا – الذي يعد من رواد البحث الصوتى بعد الخليل بن أحمد وابن جنى بقوله: (الحرف هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله فى الجدة والثقل تميزا فى المسموع)[٣]، ويقول أيضا عن سبب حدوث الصوت : (أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة بسرعة وبقوة من أى سبب كان) [٤]

وعرفه أنيس منصور بقوله : (الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها، فكل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز،على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين فى بعض الحالات)[٥]

---

(١) ينظر الأصوات اللغوية ل إبراهيم أنيس ص ٥ مكتبة نهضة مصر "دط" القاهرة "دت"

(٢) ينظر : سر صناعة الإعراب ل ابن جنى تحقيق وتعليق أحمد فريد أحمد ج١ ص ١٩ المكتبة التوفيقية .

(٣) ينظر : علوم الصوتيات عند ابن سينا ،محمد صالح الضالع ص ١٠١ دار غريب القاهرة ط سنة ٢٠٠٢م

(٤) ينظر رسالة أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا تحقيق محمد حسان الطيان ويحي مير علم ، ص ٥٦، مطبوعات مجمع اللغة العربية.

(٥) ينظر : الأصوات اللغوية ل إبراهيم أنيس ، ص ٥

وعند المحدثين كثرت الدراسات الصوتية وعرفوا الصوت بأنه :(ذلك الذى نسمعه ونحسه ، وهو بذلك عملية نطقية تدخل فى تجاوب الحواس وعلى الأخص السمع والبصر يؤديه الجهاز النطقى حركة، وتسمعه الأذن ،وتري العين بعض حركة الجهاز النطقى حين أدائه) [١]

ومن ثم فالبلاغة الصوتية هى :(كل وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها المصطلح عليه عند البلاغيين ، فلابد فيها من ملاحظة أمرين: الأول: أن نتجاوز الإطار الصوتى بجرسه وإيحائه وإيقاعه واعتداله إلى ما يحدثه من إبراز المعنى وتأكيده وتسلسله وانتظامه .

والثانى :أن يتحقق بالأداء الصوتى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ...ومتى لاحظنا صلة ما بين الجرس والإيقاع وبين حال المتكلم أو المخاطب ،فلا ينبغى حينئذ أن نتردد فى اعتبارها هذا من البلاغة الصوتية) [٢]

والحق أن القرآن الكريم ما جاء أسلوبه على ما جاء عليه من انسجام واتساق وتوازن يشبه الموسيقى إلا ليحقق الغاية من التأثير واللفت والجذب لكل المستمعين والمخاطبين على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم ،لأن الناس جميعا يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء. [٣]

وإذا كانت النصوص المبدعة هى التى تكشف الستار عما يكمن فى الألفاظ من دلالات وإيحاءات ،وظلال معانى عن طريق جرسها الناتج من

---

(١) ينظر :المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ،د رمضان عبد التواب ص ٨٣،مكتبة الخانجى القاهرة ط١ سنة ١٩٨١م

(٢) ينظر : البلاغة الصوتية فى القرآن الكريم د محمد إبراهيم أبو شادى ص ١١ الشركة الإسلامية للإنتاج والتوزيع "الرسالة"ط١ ١٩٨٨م

(٣) المرجع السابق ص ١١ ، و١٢.

ائتلاف أصواتها ،فإن القرآن الكريم من أبرز النصوص التى كان للبلاغة الصوتية فيها أثرا قويا ؛ إذ استطاعت أن تؤدى دورها فى الكشف عن الغرض المطلوب ، وتعبر عن غاياته وقصده ،وتساهم فى خلق إيقاع ينسجم ومراد الله تعالى ، قوة وضعفا شدة ورخاوة بما يزيد من انتباه السامع ،ويحقق إقباله ،ما دام جمال الإيقاع وروعته يستهوى كل الخلق .

ومن هنا يتضح أن الصوت أصبح ملازما للبحث البلاغى فى الحكم على النصوص الأدبية.

ب -: البلاغة الصوتية فى التراث العربي

أن البحث فى طبيعة العلاقة بين الصوت ومعناه بدأ عند العرب فى وقت مبكر، وذلك عندما أرادوا استخراج الأحكام الشرعية من الآيات القرآنية لإدراكهم ما لهذا من أهمية فى فهم النص القرآنى، وكذلك أيضا عندما أرادوا بيان أوجه الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم .

فالقدماء قد تنبهوا إلى الدلالة الصوتية ،وأقروا بأثرها فى استدعاء المعنى والإيحاء به ،وإن لم يحددوا للإفصاح عنه عبارة كالتى نستخدمها فى عصرنا الحاضر(١).

والذى جعل القدامي يولون اهتماما لدراسة الصوت تعدد قراءات القران الكريم ،فمخارج الصوت وصفاته ،(إنما أخذ أكثرها من ألفاظ التراث لا من كلام العرب وفصاحتهم ،لأن هاهنا موضع القول فيه ،فإن طريقة النظم التى اتسقت بها ألفاظ القرآن ،وتآلفت لها حروف هذه الألفاظ ،إنما هى

(١) ينظر : أسس النقد الأدبى عند العرب ،د أحمد أحمد بدوي ص ٤٥٥ دار نهضة مصر "الفجالة – القاهرة "د.ت".

طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فجعلت المسامع لا ينبو عن شيء من القرآن)[١]

وقد كانت بداية محاولات الربط بين الصوت والدلالة على يد الخليل بن احمد (ت١٧٥هـ) فى قوله (كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا :صر، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا :صرصر)[٢] جعل صوت "صر" لاستمراره دون انقطاع ،بينما جعل "صرصر" حكاية لصوت البازى لما فيه من انقطاع.

وبعد "الخليل بن أحمد "جاء تلميذه "سيبويه ت١٨٠هـ) الذي قدم لنا كتابا جامعا لمختلف علوم اللغة فضمنه معلومات وأبحاث هامة فى مجال الصوتيات ، فقد تحدث عن مخارج الأصوات ،وجعلها ستة عشر مخرجا ، وبدراسته لمخارج الأصوات بين الغاية من دراسة أصوات اللغة العربية، فوضح وضبط قوانين هذه الأصوات حين تجاورها بأصوات أخري فى بنيات لغوية مستقلة، حيث تظهر قيمة الصوت المنفرد ، فسيبويه لم يعن بالأصوات منفردة إلا لاهتمامه بها داخل ألفاظ وجمل ،وبين مزايا كل صوت منفرد ،لأن إدراك صفاته ومخارجه ،ييسر معرفة التأثير والتأثر أثناء مجاورته لأصوات أخري ، ولا أدل على ذلك من اهتمام سيبويه بأصوات ليس لها صور خطية .

(١) ينظر إعجاز القرآن الكريم للرافعى ص١٦٧. دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ٩ ١٩٧٣م .
(٢) ينظر : الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار ،ج٢ ص دار الهدى للطباعة والنشر –بيروت لبنان ط٢ ١٥٤

ومن علماء العرب القدامي" الجاحظ "(ت٢٥٥هـ) الذي كانت له رؤية لبلاغة الأصوات عامة ، فنجد أن له حديث عن الحروف وعن الألفاظ والعبارة ،فعن الحروف نراه يسجل نظام اجتماعهما فى الكلمة العربية فيذكر ما لا يجتمع منها بقوله : (فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير)[١]

أما عن الألفاظ فنراه يربط بين حسن اللفظ وسهولة مخارج الحروف وحلاوة أدائه الصوتى ،وبين قبول القلب له فيقول : (إن المعنى إذا اكتسي لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ،ومنحه المتكلم دلا متعشقا صار فى قلبك أحلى ولصدرك أملى)[٢]

ويقول الجاحظ أيضا : (ومن حروف الكلام وأجزاء الشعر ما نراها سهلة لينة ورطبة مواتية ،سلسة النظام ،خفيفة على اللسان ،حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد)[٣].

كما بين الجاحظ أنه لابد من مطابقة الصوت واللفظ لحال المتكلمين وأقدارهم فيقول: (ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك مقاما)[٤]

ومن القدماء الذين تعرضوا للبلاغة الصوتية من خلال حديثهم عن فصاحة اللفظة المفردة، فوصفوها بالجزالة والسلاسة والطلاوة ،وغير ذلك

(١) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ج١ ص ٥١
(٢) ينظر البيان والتبيين ج١ ص٦١.
(٣) ينظر :المرجع السابق ج١ ص ٥٠
(٤) ينظر : البيان والتبين ج١ ص ٨٧.

من الأوصاف ، حيث وجدوا فى الألفاظ قيما تأثيرية جمالية ،ترتبط بجرس الكلمات مفردة ومركبة ،فلم يهملوا جانب المعنى لحساب اللفظ ،وإنما جعلوا الذوق والحس المرهف فيصلا فى الوقوف على الحسن وتمييزه عن القبيح ، يقول أبو هلال العسكرى : (وشهدت قوما يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحا حتى يجمع من هذه النعوت فخامة وشدة وجزالة)[١]

أما الرمانى (ت٣٨٦هـ) فقد تحدث عن بلاغة الصوت من خلال حديثه عن التلاؤم فى القرآن الكريم حيث حَصَرَ وجوه البلاغة في عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

وكما نرى فإنّ من هذه الأقسام العشرة ما يرتبط بالصوت كالتلاؤم، والفواصل، والتجانس. والتلاؤم أهمُّها جميعاً لأنها ألصق بمباحث الصّوت، والرمّاني يرى أنّ تلاؤم الحروف في القرآن بَيِّنٌ لكلِّ متأمِّل فيه، ولكنّ الناس يتفاوتون في شدّة إحساسهم بذلك وفطنتهم له، كما يتفاوتون في شدّة إحساسهم بالشعر الموزون من المكسور فيقول فى ذلك : (وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة له من بعض ،كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور)[٢]

والرمّاني يرى أنّ التحدّي بالتلاؤم يعَمّ جميع الناس، لا فرق في ذلك بين عربيّ وأعجميّ، وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (الإسراء:٨٨)

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري تحقيق على البيجاوي ،ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص ٨ المكتبة العصرية بيروت١٤١٩.

(٢) ينظر: النكت :ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم تحقيق د/ محمد زغلول سلام محمد خلف الله ص ٩٥ دار المعارف ط٢

ومن الملاحظ أن الرومانى يرد التلاؤم إلى الحروف فإن منها ما هو أقصى الحلق ،ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط ، والتلاؤم يكون فى التعديل بين الحروف من غير بعد شديد أو قرب شديد ، والمعول عليه سهولة الكلام على اللسان وحسنه فى الأسماع وتقبله فى الطباع)[١]

أما الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) (فلم يهتم بالبلاغة الصوتية لا لعدم اقتناعه أو اكتراثه بها ، فليس فى كلامه ما يدل على ذلك ، ولكن لأن أكبر همه وشغله كان حول قضية النظم ، وأن ما نراه من ترتيب الكلمات فى اللفظ صورة لترتيب معانيها فى النفس ، نستشف ذلك من قوله:(ثم إنا لنعلم أن المزية المطلوبة فى هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة، ومحال أن يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر ويستعان عليها بالرؤية ،اللهم إلا أن تريد تأليف النغم وليس ذلك مما نحن فيه بسبيل) [٢]

و من أكثر الباحثين الذين اعتنوا بالبلاغة الصوتية وبحثوا فى إعجاز القرآن من الناحية الصوتية هو" ضياء الدين بن الأثير" (ت٦٣٧هـ) الذي عَكَفَ على كتب المتقدمين من أصحاب البيان والإعجاز دراسةً وتَمحيصاً، قبل تأليف كتابه: (المثل السائر)

وقد ثبت عنده أنّ « الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن وإنما كان ظاهراً بَيّناً لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حُسنِه،

(١) ينظر : المرجع السابق ص ٩٦.

(٢) ينظر البلاغة الصوتية فى القرآن الكريم للدكتور /محمد إبراهيم شادى ص ١٧

وحُسنُه مُدرَك بالسّمع، والذي يُدرك بالسمع إنما هو اللّفظ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذَّه السّمع منه فهو الحسَن)[١]

وفي محاولة منه لإثبات نظريته هذه يلجأ إلى قياس حاسة السّمع التي تلتقط الأصوات ومقارنتها بالحواس الأخرى فيقول: « ومن له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمةً لذيذةً كنغمة أوتار، وصوتاً مُنكَراً كصوت حمار، وأنّ لها في الفم أيضاً حلاوة كَحَلاوة العَسَل، ومَرارة كمَرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرَى النّغمات والطّعوم)[٢]

ومِمّا اهتدى إليه ابن الأثير في تصويره لكيفية تلقّي الألفاظ من قِبَل المتلقّي قوله:(وبعد هذا فاعلم أنّ الألفاظ تجري من السّمع مَجرَى الأشخاص من البصَر، فالألفاظ الجزلة تُتَخيّل في السّمع كأشخاص عليها مَهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تُتَخيّل كأشخاص ذي دَماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سِلاحهم وتأهَّبوا للطِّراد وترَى ألفاظ البحتري كأنها نساءٌ حِسان عليهم غلائل مُصبَّغات وقد تَحلّين بأصناف الحلّي، وإذا أتعمتَ نظرك فيما ذكرتُه ههنا وجدتَني قد دلَلْتُك على الطريق وضربتُ لك أمثالاً مناسبة ومثله الأعلَى في كلِّ ذلك هو أسلوب القرآن الكريم)[٣] لأنّنا « إذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سَهلاً سَلساً، وما تضمّنه من الكلمات الغريبة

(١) ينظر المثل السائر ضياء الدين ابن الأثير تحقيق د /أحمد الحوفى ود بدوي طبانة ج١ ص ٨٢ دار النهضة بمصر ط٢ .
(٢) ينظر: المرجع السابق ج١ ص ١٥٦.
(٣) ينظر المثل السائر ج١ ص ١٨١

يسيرٌ جداً، هذا وقد أُنزل في زمن العرب العرباء، وألفاظه كلّها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالاً وكفَى به قدوة في هذا الباب)[١]

ج-: البلاغة الصوتية عند المحدثين

مما سبق اتضح لنا أن الحديث عن البلاغة الصوتية ليس بالأمر المستحدث ، ولكن له أصول قديمة فى كلام العلماء أدباء كالجاحظ ،ولغويون كابن جنى ، ومتكلمون كالرمانى، ونقاد بلاغيون كابن الأثير وغيرهم ومن العلماء المحدثين الذين تناولوا البلاغة الصوتية

١- الرافعى

وكما تناول القدامى البلاغة الصوتية فى مؤلفاتهم ، تناول الباحثون المعاصرون الإعجاز الصوتي للقرآن ضمن إطار الإعجاز البياني، شأنهم في ذلك شأن الباحثين القدامى، وعلى الرغم من الأبحاث الصوتية الدقيقة التي صدرت عن بعضهم في ثنايا دراساتهم لإعجاز القرآن البياني،وقد أصاب المحدثون تسميتها كالرافعى إذ يقول : (وليس بخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أولينا أوشدة ،وبما يهيىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى)[٢]، فمع أنه يري أن للغة بلاغة كبلاغة الصوت فى لغة الموسيقى، إلا أنه يعود ليرى أن فى اللغة ذاتها بلاغة أصوات، يقول: إن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج

(١) ينظر : المر جع السابق ج١ ص ١٦٢.
(٢) ينظر :إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٤٥ت

الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خلقت فى نفس الإنسان، فهناك إذن بلاغة صوتية تظهر عند تحرك اللسان العربى المطبوع بالكلام المعبر عن الفكرة والتجربة والإحساس والشعور ، يتفاوت مقدار تلك البلاغة من لسان إلى آخر بحسب حظ المتحدث من الطبع والتمكن والموهبة ،وبحسب قربه من السليقة زمنا أو ممارسة.) (١)

هذا وقد أطنب الرافعى فى الحديث عن الجانب الصوتى ودلالة الحركات الثلاث، وضرب لذلك أمثلة كثيرة وذهب إلى أن : (مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسي ،وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب تنوع الصوت)(٢) وقال فى موضع آخر: (إن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو فيه والذي تساق له الجملة)(٣) وقال أيضا " حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان ،فلا تعذب ولا تساغ ،وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة ،فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا ،ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد امتهدت لها طريقا فى اللسان ،واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتي إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة فى موضعها ،وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة)(٤) ثم أتى بمثال شرح فيه قوله السابق .

(١) نقلا من كتاب البلاغة الصوتية فى القران الكريم ص ٢٠
(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعى ص ٢١٥ .
(٣) ينظر المرجع السابق ص ٢٢٦.
(٤) ينظر المرجع السابق ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

كان الرافعى يري أن للقرآن الكريم تميز فى موسيقاه وأن القرآن الكريم بجمال نظمه وحلاوة إيقاعه(هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوى فيهم حتى كان لهم من محاسن التركيب فى أساليبهم مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف)[١]

٢- سيد قطب

يُعتبر سيد قطب أكثر الباحثين المعاصرين اهتماماً بالجانب الصوتي والإيقاعي في القرآن الكريم، ويمكن ملاحظة ذلك في كتبه العديدة التي كان القرآن محورَها الأساسيّ، وكان للصّوت والإيقاع فيها جميعاً نصيبٌ وافٍ وسَهمٌ وافِر، فلقد شُغِفَ سيد قطب بالقرآن الكريم، لأنه وَجَدَ فيه (سِرّاً خاصّاً، يشعر به كلُّ من يواجه نصوصَه ابتداءً، قبل أن يشعر أنّ هنالك شيئاً ما، وراء المعاني التي يُدركها العقل من التعبير، وأنّ هنالك عنصراً ما، يَنسكب في الحسِّ بِمجرّد الاستماع لهذا القرآن)[٢]

وكذلك أيضا يرى – سيد قطب– أن التصوير الفنى فى القرآن الكريم يتم بالحركة والإيقاع، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار ،وجرس الكلمات ونغم الجمل فى إظهار صورة من الصور ،تدرك جمالها ومعناه الأذن ،والحس والوجدان...يقول :(التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة التخيلية عن المعنى الذهنى ..وأن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني، أو الحادث المرورى ،إنما هى ألفاظ جامدة ،لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن) [٣] .

(١) ينظر إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٤٤.
(٢) ينظر فى ظلال القرن سيد قطب ج٦ ص ٣٣٩٩ دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٦م.
(٣) ينظر :التصوير الفنى سيد قطب ص ٣٦ ،٣٧ دار الشروق مصر ط ١٤ سنة ١٩٩٣ .

فحلاوة القرآن وجماله نابعة من ألفاظه من حيث هى أصوات ،توحى إلى السمع بتأثيرات تجعل المعنى قريبا إلى فهم المتلقى .

لقد رأى سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) أن يكشف عن أوجُه التناسق الفني التي تبلغ في التصوير القرآني ذُروتَها. ومِمّا اهتدَى في الكشف عنه مِمّا تدخل فيه الدلالة الصوتية كعنصر أساسيّ تخيُّر الألفاظ، وهو التنسيق في تأليف العبارات بتخيُّر الألفاظ، ثمّ نظمها في نسق خاصّ من التأليف، وصولاً إلى أرقَى درجات الفصاحة. وقد اعترف سيد قطب بأنّ مَن سبقوه قد أكثروا من القول فيه، وبلَغوا غاية مداه). [١]إمّا ما جاء هو به فتحديده لقيمة اللفظ القرآني في كونه « يرسم الصورة، تارةً بجرسه الذي يُلقيه في الأذن، وتارةً بظلِّه الذي يُلقيه في الخيال، وتارةً بالجرس والظلّ معاً).[٢] ،ويضرب لكلٍّ من هذه الأنواع الثلاثة أمثلةً وشواهد قرآنية ما سُبق إليها.

وهكذا نجد أن البلاغة الصوتية قد نالت جزء كبيرا من الاهتمام سواء فى التراث العربي القديم أو عند المحدثين ، وإنما نالت دراسة الصوت عموما كل هذا الاهتمام لأن (الصوت هو الوسيلة للإعلان أو الكلام) [٣]

وبهذا يتضح لنا أن بلاغة اللفظ الصوتية تجعله يأخذ أبعادا دلالية وجمالية تؤثر فى نفسية المتلقى وتحسه على تقبل الخطاب ،مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)[٤]

---

(١) ينظر : المرجع السابق ص ٧٢ ت
(٢) ينظر المرجع السابق ص ٧٦.
(٣) ينظر: الدلالة والكلام ،د محمد محمد داود ص٤٨، دار غريب القاهرة ط١ سنة ٢٠٠٢م .
(٤) ينظر صحيح البخاري تحقيق محمد عبد القادر عطا دار التقوى ط١ ٢٠٠١م . كتاب التوحيد حديث رقم ٧٥٤٤.

د- : أهمية دراسة البلاغة الصوتية فى القرآن الكريم .

نزل القرآن الكريم باللغة العربية ، واللغة فى جوهرها عبارة عن أصوات أو مقاطع صوتية، والصوت هو الآلة التى يؤدى بها اللفظ ، وبه يظهر الكلام موزونا أو منثورا ،فلا تظهر أهمية النطق بالكلام حتى يسمع؛ لأن ذلك يساعد على تمثيل المعنى ،كما أنه بسماع اللفظ تفجر الطاقات الصوتية الكامنة فى الألفاظ والتى قد تصور معانيها من نطقها ،إذا أدينا الإلقاء حقه ،فوفينا مخارج الحروف ،وراعينا مواضع الوقف والوصل .

والقرآن الكريم هو النموذج الاسمي فى البلاغة الصوتية ؛ لأن له نظاما صوتيا وجمالا لغويا ،تنتظم باتساقه وائتلافه فى الحركات والسكنات والمدات والغنات اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا ،فهذا الجمال الصوتى هو أول شىء أحسته الآذان العربية ،أما الجمال اللغوى فيتميز برصف الحروف وترتيب الكلمات ...كما أن للقرآن الكريم تعاملا خاصا مع الحرف والكلمة ، فهو له تعابيره الفريدة ،وكذلك قدراته التعبيرية لتقديم الصورة الفنية ، وتعميق الملامح ،وعرض التجربة ،كما لو كانت حية معاشة تتخلق أمامنا ، فهو قد بنى على تقطيع الأصوات ،وجرس الحروف وإيقاع الكلمات ،فألفاظ القرآن الكريم تمتاز بخصائصها اللغوية ،وكمالها البلاغى الذي يتسم باتساع عباراتها ، وتساوق ألفاظها، ومطابقة مدلولها مقتضى الحال.

والمعلوم أن لكل لفظ خصائصه المتميزة التى تجعل منه وحدة صوتية تؤدى الكثير من الوظائف، وتحقق الكثير من الغايات .. ذلك أن للفظ فى ذاته من جهة ، وداخل التراكيب التى يرد بها من جهة أخري العديد من مجالات التعبير والتأثير المرتبطة بالقدرة على استخدام طاقاته الصوتية والدلالية، وقد كانت العلاقة بين أجراس الحروف وأصوات الأفعال ،وما

يترتب عليه من ملاحظة الصلة القوية بينهما من بين القضايا التى شغلت اللغويين والبلاغيين على السواء ، فالعرب سحرهم القرآن الكريم منذ الوهلة الأولى سواء منهم فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ،ومن جعل على بصره غشاوة ، فالقرآن كان العامل الحاسم فى إيمان من آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فى أوائل الدعوة وقصة إسلام عمر بن الخطاب ،وقصة تولى الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والرفض ، وكلتاهما تبينان هذا السحر القرآنى الذي سحر العرب منذ اللحظة الأولى .

ومن المعلوم أن اللغة العربية بطبيعتها لغة موسيقية ، والقرآن الكريم يسير على سنن العربية وأساليبها فى التعبير ، فتميز أسلوبه بالإيقاع الصوتى المعبر والجرس اللافت المؤثر ،فألفاظ القرآن الكريم فيها "جرس" أو دلالة صوتية ،دلت على التناسب بين أصوات ألفاظه ومعانيها مناسبة عجيبة لفتت الأنظار وأذهلت العقول ، ولعل ألفاظ غريب القرآن خاصة كانت ميدانا رحبا لمن أراد أن يقف على الدلالة الصوتية للألفاظ .

والجمال الصوتى فى القرآن الكريم الذي ينشأ عن الاتساق والانسجام بين أصوات الكلمة والكلمات فى الجملة يؤدى إلى سرعة دخول المعنى إلى العقل ،لأن الأذن تتلذذه وترتاح إليه، كما تتمتع العين برؤية المنظر الجميل ،ويتوقف قدر كبير من ملاحظة تلك الميزة فيه على حسن تلاوته ،ومن هنا ندرك مغزى قول النبي صلى الله عليه وسلم " زينوا القرآن بأصواتكم " [(١)] ، فليس المقصود هنا التطريب ،ولكنه حسن الأداء بالتزام النطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة ، من مد وغن وإظهار وإخفاء..، فإن هذا من حسن

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه باب "فى حسن الصوت " تحقيق محمد عبد الباقى ج١ ص ٤٢٦ طبعة دار إحياء الكتب العربية "د. ت"

الإلقاء الذي يزين القرآن ،ويبرز دور الأصوات في إبراز المعانى [١] فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن الكريم باللغة العربية لفظًا ومعنى، فإنه تعالى أراد لتوصيل رسالته إلى الناس أرقى وسيلة اتصال عرفتها البشرية وهي أهم وأقوى ما يتميز به عن سائر أعضاء المملكة الحيوانية ــ ألا وهي اللغة ــ كما أنه ــ جل جلاله ــ قد اختار من مظاهر اللغة ومكوناتها أهم وأقوى ما يحقق الغرض المطلوب من دقة وضبط وإتقان من حيث توصيل ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وتبليغها وإفهامها ــ ألا وهو الصوت المباشر ــ فأنزل القرآن الكريم نزولاً صوتيًّا متلوًّا، وأمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يتلوه على الناس بلسانه الشريف. وظل النص القرآني ــ منذ اللحظة الأولى لنزوله- يتردد على ألسنة الأجيال وينتقل من الصدور إلى الصدور غضًّا على نفس هيئته يوم نزل أول مرة، وبذا تتحقق تجليات المعجزة القرآنية في خلود النص المقدس وحماية مبناه ومعناه من التحريف والتغيير، ويكون القرآن الكريم بحق مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمنًا عليه، ونكون نحن بحق شهداء على الناس، ويكون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ شهيدًا علينا جميعًا، وذلك لأن الأداء الصوتي الصحيح الدقيق هو الوسيلة الوحيدة المثلى التي تضمن تمامًا توصيل الفكر بمنتهى الدقة والضبط والإحكام، والسبب في ذلك أن اللغة أصلاً ظاهرة صوتية، فحلاوة القرآن الكريم وجماله نابع من ألفاظه من حيث هى أصوات، توحى إلى السمع بتأثيرات تجعل المعنى قريبا إلى فهم المتلقي، ولو أن ألفاظ القرآن تستوى كلها فى الفصاحة ،إلا أن الأساس فى ذلك يكمن

(١) ينظر : فن الإلقاء ،عبد الوارث عسر :ص ٢٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م ، والبلاغة الصوتية فى القرآن الكريم ص ١١.

فى انتقاء الأصوات المناسبة فى تأدية المعنى بحسب الدلالات قصد تجسيد المعاني فى أحسن صورة والدقة فى التصوير مع ما يتناسب والسياق والموقف، فالانتفاء يكون دلاليا بواسطة توظيف البنية الصوتية الدالة على المعنى بإيقاعها وجرسها وإيماءاتها.

وخلاصة القول: أن القرآن الكريم فى تناسب مفرداته وعباراته وآياته وسوره، وروعة أسلوبه، وجمال صوره ،وعذوبة موسيقاه ،يغدو أرقى نص وأخلده، يحتوى على التصوير الفنى الذي يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور،... فإذا ما وجدنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية ؛ وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروري ، إنما هى ألفاظ جامدة ،لا ألوان تصور،ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن.... ويجب أن نتوسع فى معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفنى فى القرآن ، فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخيل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون فى التمثيل .

وكثيرا ما يشترك الوصف ،والحوار ،وجرس الكلمات ،ونغم العبارات، وموسيقى السياق ، فى إبراز صورة من الصور تتملاها العين، والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ، وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ،تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانان ،فالمعاني ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حية أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة .[١]

(١) ينظر : التصوير الفنى فى القرآن الكريم سيد قطب ص ٣٦، ٣٧ ، و٣٨ بتصرف

المبحث الأول : سورة القارعة

فى القرآن الكريم أسماء كثيرة ليوم القيامة منها يوم القيامة؛ ، الطامّة، يوم الحشر، الحاقّة، وأمثال ذلك، والقارعة اسم من أسماء يوم القيامة ، ولكن لماذا يُسمّى يوم القيامة أو ساعة الحشر بالقارعة؟ لأنّها تقرع القلوب هولاً، وتُحطِّم، وتُخيف، وتغيّر المقاييس، فهذه السورة المباركة ترسم مشهداً بمثابة إنذار للبشر حتّى يتّعظوا وينتبهوا لأعمالهم؛ لأنّه يوم مليء بالأهوال، والاضطرابات، فلا ينجو إلّا من ثقل ميزانه بالعمل الصالح.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾

****

مناسبة السورة لما قبلها – أن آخر السورة السابقة –سورة العاديات– كان في وصف يوم القيامة، وهذه السورة الكريمة تتحدث عن وصف ذلك اليوم، وما يكون فيه من الأهوال، فلما ختم الله عز وجل سورة العاديات بالبعث بدأ هنا بصيحته فقال " الْقَارِعَةُ" .

تسميتها وترتيبها فى المصحف الشريف : – تعرف هذه السورة بالقارعة في القرآن الكريم لان فيها إثبات وقوع البعث وما سبق ذلك من الأهوال، واتفقت كتب التفسير والسنة على تسميتها بذلك، ولم يذكر لها

المفسرون أسماء أخرى غير هذا الاسم، وكذلك لم يرو عن الصحابة والتابعين في تسميتها شيء بغير هذا الاسم ، وجمهور المفسرين على القول بأنها اسم من أسماء القيامة، كالحَاقَّة، والطَّامَّة، والصَّاخَّة، والوَاقِعَة. وقالوا:" إن الشيء إذا عظُم خطره، كثُرت أسماؤه ". وروي عن الإمام علي كرم الله وجهه:" كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمَّى ".فإن لكل اسم دلالته على معنى خاص به، فـ"الحَاقَّةُ " هي التي يحق فيها وعد الله تعالى بالبعث والجزاء. و"الطَّامَّةُ " هي التي تطمُّ، وتعم بأحوالها. و"الصَّاخَّةُ " هي التي تصخُّ الآذان. أي: يصم صوتها الآذان بما يصحبه من جرس عنيف نافذ، يكاد يخترق الأذن، و "الوَاقِعَةُ" هي التي يصدق وقوعها، فليس لنفس أن تكذِّب بها بأن تنفيها؛ كما نفتها في الدنيا "لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ"(الواقعة٢) أما "الْقَارِعَةُ "فهي التي تقرع الناس بالأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم والكواكب بالطمس والانكدار. ومذهب أهل التحقيق من المفسرين أن قوله تعالى: "الْقَارِعَةُ *مَا الْقَارِعَةُ "أشدُّ هولاً من قوله تعالى: "الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ"؛ لأن النازل آخرًا لا بد، وأن يكون أبلغ؛ لأن المقصود منه زيادة التنبيه. وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى.

وأما بالنظر إلى المعنى فـ "الْحَاقَّةُ" أشدُّ لكونها راجعة إلى معنى: العدل، و"الْقَارِعَةُ" أشد لكونها تهجم على القلوب بالأمر الهائل، وإذا تأملنا قوله تعالى :﴿الْحَاقَّةُ*مَا الْحَاقَّةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ*كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ نجد كيف وضعت "الْقَارِعَةُ "في الآية الرابعة موضع ضمير "الْحَاقَّة"؛ إذ كان ينبغي أن يقال: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِهَا"، وإنما أتى سبحانه

وتعالى- هنا- بلفظ "الْقَارِعَةُ "؛ لتدل على معنى القرع في "الْحَاقَّة"، زيادة في وصف شدَّتها وهولها.

وافتتاحها بلفظ القارعة افتتاح مهول، لان فيه تشويق إلى معرفة ما سيخبرُ الله تعالى به، أما بالنسبة لترتيب السورة فى المصحف الشريف فتسبقها سورة العاديات وتلحقها سورة التكاثر، أما مكان نزولها فهي مكية بإجماع أهل العلم.

موضوع السورة وما اشتملت عليه: - تتمحور السورة حول موضوع مهم إلا وهو موضوع القيامة والإخبار عن بعض أهوالها، وجزاء السعداء والأشقياء، ثم ذكر – سبحانه وتعالى – في هذه السورة علة استحقاق النار وهو الانشغال بالدنيا عن الدين، واقتراف الآثام ، واشتملت هذه السورة المكية أيضا على ذم العمل للدنيا فقط، والتحذير من ترك الاستعداد للآخرة، فيجب على الإنسان أن يزيد من صالح أعماله بما يثقل ميزانه؛ وإلا فإن مصيره إلى نار حامية، عندما تُقْرَع ساعة القيامة، وعندها يكون الناس كالفَرَاش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وتكون الجبال كالصوف المنفوش؛ لذا من خلال النظر في هذه السورة يمكن إن نجمل ما تناولته هذه السورة الكريمة من مقاصد:-

١- بيان إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال، وبيان هيبة يوم القيامة وتأثيرها في الجمادات والحيوانات، ففصلت الحديث عن أهوال القيامة وبيان حال الناس فيها بقول تعالى ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

٢- أشارت السورة إلى بعض أمارات الساعة، وهي نسف الجبال وجعلها كالصوف المندوف، مما يوجد الذعر والهلع والتأثير الشديد في قلوب الناس بقولة تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

٣- إثبات الجزاء على الأعمال، وان أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله تعالى في نعيم، وأهل الأعمال السيئة في قعر الجحيم، وبيان حال أهل الدركات، ونصب الموازين لوزن الحسنات والسيئات بقولة تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾

٤:- التهديد برؤية الجحيم يقينا، ومجابهة أهوال النار بقولة تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ) يقول الفيروز أبادى: (ومعظم مقصد السورة : بيان هيبة العرصات ،وتأثيرها فى الجمادات والحيوانات ، وذكر وزن الحسنات والسيئات ،وشرح أهل الدرجات وبيان حال أصحاب الدركات)[١] وعن مضمون السورة الكريمة يقول الصابونى أيضا:(وسورة القارعة سورة مكية ، وهى تتحدث عن القيامة وأهوالها ،والآخرة وشدائدها ،وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور ،وانتشارهم فى ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير ،المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم .

كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث المتطاير فى الهواء ،بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض ،وقد قرنت بين

(١) ينظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى تحقيق محمد على النجار ج ١ ص ٥٣٩ طبعة القاهرة ط ٣ سنة ١٩٩٦م

الناس والجبال تنبيها على تأثير تلك القارعة فى الجبال حتى صارت كالصوف المندوف ،فكيف يكون حال البشر فى ذلك اليوم العصيب؟ .

وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التى توزن بها أعمال الناس ، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها)[١]

شرف السورة وفضلها : للسورة الكريمة شرف عظيم كونها من كلام الباري "عز وجل"، زيادة على ذلك ما اشتملت علية السورة من فضل الله لعباده ، يقول الفيروز ابادى عن فضل السورة الكريمة : (فيها أحاديث واهية ؛منها حديث أبى : (من قرأها ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة،وحديث على :يا على من قرأها فكأنما ذبح ألف بدنة بين الركن والمقام ،وله بكل آية قرأها ثواب المرابطين، وبكل حرف درجة فى الجنة ،وكُتب عند الله من الخاشعين) [٢]

البلاغة الصوتية لسورة القارعة .

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بلفظ ﴿الْقَارِعَةُ ﴾، وهو افتتاح مَهول مرعب. فيه ترويع وتخويف، وفيه إثارة وتشويق إلى معرفة ما سيأتي بعده من خبرها، وقد ألقى به سبحانه مفردًا؛ كالقذيفة هكذا: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، بلا خبر، ولا صفة؛ ليلقي بظله، وجرسه الإيحاء المدوِّي،، ويقرع بهوله القلوب، ("والقارعة" وصف من القرع ،وهو ضرب جسم بآخر بشدة بها صوت، وأطلق القرع مجازا على الصوت الذي يتأثر به السامع تأثر خوف أو اتعاظ

(١) ينظر : صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٥٩٥. دار القرآن الكريم بيروت ط ٤ سنة ١٩٨١م .

(٢) ينظر : بصائر ذوى التمييز للفيروز آبادى ج ١ ص ٥٣٩

،يقال قرع فلانا ،أي زجره بصوت غضب... ،وأطلقت "القارعة" على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله " وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ"(الرعد ٣١)،وقيل تقول العرب :قرعت القوم قارعة ،إذا نزل بهم أمر فظيع)[١]

ومن هذا القول يتضح لنا أن استعمال القارعة لفظ مجازي ،لا يراد به تخصيصه بمعنى معين ،هو تعبير شامل لكل ضرب وهذا الاستعمال المجازى يعبر عن التأثير المأساوي للضرب يقول الرازي: (وإنما هو استعمال مجازى للتعبير عن التأثير النفسي المأساوي لتأثير الضرب ....فكل ضرب هو قارعة كيوم القيامة وجهنم ،وبلاء الدنيا من مرض أو فقر ،فهو إذن تعبير شامل لكل بلاء)[٢]

ويقول سيد قطب : (والقارعة توحي بالقرع واللطم ،فهى تقرع القلوب بهولها ،والسورة كلها عن هذه القارعة ،حقيقتها ،وما يقع فيها ،وما تنتهى إليه ، فهي تعرض مشهدا من مشاهد القيامة .)[٣]

والقارعة :اسم من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والواقعة والآزفة ..الخ ، والمراد بها هنا هو الحادثة العظيمة أو الشديدة .

وقد جاء لفظ "القارعة" بصيغة المؤنث ،فقد ختم بالتاء المربوطة التى تفيد دلالة التأنيث ،ولو كانت مذكرا لقيل :القارع ، والمراد من تأنيثها قيل: (لتأويلها بالحادثة أو الكارثة)[٤]،ف"القارعة" هنا يراد بها حادثة

(١) ينظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج ٣٠ ص ٥١٠. الدار التونسية للنشر (د. ط) و(د . ت)
(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي ج ٣٢ ص ٢٦٥. دار.الفكر للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٨١م
(٣) ينظر: فى ظلال القرآن ص ٤٦٤٢.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥١٠

عظيمة[١]، ورأى باحث معاصر أن للتأنيث أثرا فى جعل اللفظة أكثر وقعا فى النفس (لأنها من الأسماء التى ختمت بتاء تأنيث ،فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية)[٢] ثم عقَّب سبحانه وتعالى على هذا الإجمال والإبهام بسؤال التهويل والتعظيم عن ماهيَّة هذه القارعة؛ ليثير في النفوس الدهشة من هولها، والتساؤل عن معرفة حقيقتها، فقال " مَا الْقَارِعَةُ "فأعاد اللفظ مرة أخري ،فوضع الظاهر موضع المضمر تفخيما وتعظيما لشأنها فالأصل فى غير القرآن أن يقال "ما هى" ؟أى:أى شيء عظيم مهول هى؟ ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تفخيما لشأنها ،وتعظيما لهوله ، ولما كان هول الشيء وعظمه يستلزم تساؤل الناس عنه اتبعه بسؤال آخر فقال تعالى " وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" زيادة فى التهويل ومبالغة فى التعظيم ، والخطاب فيه لغير معين [٣]فالخطاب عام وشامل أى وما أدراك أيها السامع .

وقد تكرر لفظ "القارعة" أكثر من مرة مما يدل على عظم شأنها وشدة خطرها ،وقد وضع الدكتور فاضل السامرائي تكرار لفظ القارعة تحت عنوان "إعادة المبتدأ " فقد ذكر(قد يعاد المبتدأ بلفظه، وأكثر ما يقع ذلك فى مقام التهويل والتفخيم ، تقول :زيد ما زيد ؟أى :أى شىء هو تفخيما له وتعظيما)[٤]

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازى ج ٣٢ ص ٢٦٥. دار الفكر العربي للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٨١م.

(٣) ينظر القرائن الدلالية للمعنى فى التعبير القرآنى (اطروحة دكتوراة) عدوية عبد الجبار كريم الشرع ،كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ٢٠٠٦م. ص ٨٨ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ج٣٠ ص ٥١١

(٤) ينظر :معاني النحو للدكتور فاضل السامرائى ج ١ ص ١٦٣ دار إحياء التراث العربى بيروت – لبنان ط ١ ٢٠٠٧م.

أما قوله تعالى:﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾؟فهو استفهام يراد به التهويل والتعظيم على طريقة المجاز المرسل؛ لأن الأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه، فصار التعظيم والتهويل مع الاستفهام متلازمين.

وهناك فرق فى الاستعمال بين قوله " وما أدراك " وقوله " وما يدريك " وقد تنبه لهذا الفرق الراغب الأصفهانى حيث قال : (كل موضع ذكر فى القرآن الكريم "وما أدراك" ؟فقد عقب ببيانه – أى علمه الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبر به– نحو قوله تعالى :" ومآ أَدْراكَ ما هِيَهْ (١٠) نارٌ حامِيَةٌ" وقوله تعالى:" وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ" ...وكل موضع ذكر فيه "وما يدريك "لم يعقبه بذلك)[١]

ويلاحظ فى هذه الآيات الثلاث " الْقارِعَةُ (١) مَا الْقارِعَةُ (٢) وَمآ أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ" أنها ذات مقاطع صوتية مفتوحة ،ومما هو معلوم فى الدراسات الصوتية أن المقطع الصوتى المفتوح يتطلب جهدا عضليا كبيرا ، وهناك ترابط وثيق بين المقاطع الصوتية المفتوحة ودلالة التهويل التى عمدت هذه الآيات إلى بيانها ،يضاف إلى ذلك أن السورة بمجملها أدت دلالة التهويل والإنذار من يوم القيامة .

ثم تأتى بعد ذلك الآيات فتبين ما سيحدث فى هذا اليوم من أحداث جسام فيقول تعالى " يَوْمَ يَكُونُ النّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ * وتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" والآيتان جواب لقوله تعالى :"وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" ، وكان حق هذا الجواب أن يكون بماهيَّة القارعة وحقيقتها، لا بما يكون فيها من أحوالها. ولكن عدِل عن الأول إلى هذا؛ لأن ماهيتها وحقيقتها– اكبر من أن يحيط بها الإدراك، ويبلغ بها التصور .

---

(١) ينظر : مفردات ألفاظ القران الكريم للأصفهاني ص ٣١٣

وقد بين الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين حالاً من أحوال القارعة، وبين بعض أحوالها الأخرى في سورة(الواقعة) بأنها خافضة رافعة. وفي(الحاقة) بما أصاب ثمود وعاد وحلَّ بهم بسبب تكذيبهم بالقارعة. وفي (الطامة والصاخة) ينظر المرء ما قدَّمت يداه. وقد ذكر سبحانه وتعالى مع كل حالة من هذه الحالات الحال الذي يناسبها، والقارعة من القرع؛ وهو: ضرب جسم بآخر بشدة لها صوت، فناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث، ويفكك ترابط الجبال وتماسكها إلى هباء العهن المنفوش.

فالقرآن الكريم يذكر هول هذا اليوم العصيب ،حيث إن البشر يكونون "كالفراش المبثوث" فالفراش هو :الحشرة التى تحوم حول الوردة أو الشمعة، والمبثوث يعنى : المنتشر والمضطرب ،والمتفرق، وخص الفراشات بالذكر من بين سائر الحشرات ؛لأنها تطير بشكل غير منظم ،فلا تتجنب الأخطار، بحيث تحوم حول الشمعة ،وتلقي بنفسها فيها فتهلك وتموت ،فهذه الآية تمثل الاضطراب والهول اللذين يعيشهما الإنسان يوم القيامة بأقوى صورهما، ففى الآية تشبيه مرسل مجمل إذ ذكرت الأداة "الكاف" وحذف وجه الشبه ، فقد (شبه الناس فى وقت البعث بالجراد المنتشر، والفراش المبثوث؛ لأنهم إذا بعثوا فيموج بعضهم فى بعض كالجراد يموج بعضه فى بعض)[١] ،وإلى ما يقترب من هذا ذهب الشيخ الطوسي بقوله : (إن الخلائق لعظم ما يرونه من الأهوال ويغشاهم من العذاب يهيم كل فريق على

(١) ينظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق د عبد الجليل عبده شلبي ج٥ ص ٣٥٥ عالم الكتب ط١ سنة ١٩٨٨م.

وجهه ،ويذهب فى غير جهة صاحبه)[١] ، ولم تك هذه المفاهيم مقتصرة على القدماء بل مضى المحدثون إلى تأيدها وإثباتها فقد (قيل أن وصفها بالفراش فى أول حالها فى الاضطراب والحيرة ،ووصفهم كالجراد فى الكثرة ووحدة الاتجاه)[٢] ،فمن يموج بعضه فى البعض الآخر ،ومن يعانى من أليم أليم العذاب ، وغيرها من صفات الهوان ،لابد من أن يتصف بحيرة الأمر واضطراب الرأى ، ومهما كثرت الأقوال فإنها لا تكاد تخرج عن مفهوم واحد وإن اختلفت فى التعبير عنه ،ومهما يكن فقد شكلت (هذه الحيوانات فى النص القرآنى صورة جميلة ،إذ شبهت الناس فى حال فزعهم بهذه الحيوانات ، ف "الفراش" هنا "الناس" يوم القيامة فى الكثرة والانتشار والضعف والمذلة)[٣] ،ومن خلال عرض النصوص السابقة يمكن أن نلخص وجه الشبه بما يأتي: ١-الانتشار السريع ، و٢- تموج البعض فوق البعض الآخر ، و ٣- الضعف .

وعقب هذا التشبيه بتشبيه أخر، يوضح هول هذا اليوم على الجبال فقال تعالى " وتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ"، فإذا كان الجبل فى عرفنا مثال للقوة والصلابة والصمود والرسوخ ، فسيكون من كثرة الهول والاضطراب يوم القيامة " كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، ونلاحظ هنا كيف وظف القرآن الكريم هذا التعبير بلاغيا ، والمعانى التى يراد إيصالها من خلاله قال الطبرى : (العهن

---

(١) ينظر : التبيان فى تفسير القرآن للطوسي تحقيق أحمد قصير العاملى ج ١٠ ص ٣٩٩ دار إحياء التراث العربي (د.ط)و(د.ت).

(٢) ينظر: أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطى ج٩ ص ٤٦٠ مطبعة محمد بن عوض بن لادن ط٢ سنة ١٩٨٠م.

(٣) التطور الدلالى للألفاظ فى النص القرآنى "دراسة بلاغية "أطروحة دكتوراة لـــ /جنان منصور الجبوري ص ٦١ كلية التربية – بغداد

هو الألوان من الصوف)[١]، فالعهن المنفوش أريد به الصوف ذو الألوان المختلفة،قال الزمخشري:(وشبه الجبال بالعهن ،وهو الصوف المصبغ ألوانا؛ لأنها ألوان، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها)[٢]، وبناء على هذه الأقوال فإن الآية الكريمة أرادت من التشبيه تصوير حالة تناثر الجبال بصورة دقيقة، فامتزجت ألوانها لشدة تناثرها ،فأصبحت هيأتها وكأنها صوف منفوش مختلطة ألوانه ،ولا غرابة فى أن تقترن الجبال بالألوان ؛ لأن ذلك قد صرح به القرآن الكريم إذ جعل للجبال ألوانا وذلك فى قوله تعالى: "وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ"(فاطر ٢٧).

مما هو معلوم أن القرآن الكريم يكمل بعضه بعضا ،وتفسر آياته بآيات أخر، وقد تتشابه آيات مع آيات أخر تشابها كاملا ،وقد يكون التشابه نسبيا ،ونبين هنا مدى التقارب والاختلاف بين سورة القارعة وسورة المعارج والتشابه فى قوله عز وجل" وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ" (المعارج ٩) وقوله: "وتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ"(القارعة٥)،ومما لا يخفى أن الآيتين المباركتين تتشابهان فى بيان الأمر الذي ينتظر الجبال ،وما ستكون عليه ، إلا إن سورة القارعة قد زادت كلمة "المنفوش" فى حين لم توجد فى المعارج ،وللتعرف على السبب فى ذلك سنقف عند قبس مما أملاه الدكتور فاضل السامرئي إذ يقول : (لما ذكر القارعة فى أول السورة ،والقارعة من القرع ناسب ذلك ذكر النفش ؛لأن من طرائق نفش الصوف أن يقرع بالمقرعة ،كما ناسب ذلك من ناحية أخري وهى أن الجبال تهشم بالمقراع "وهو من القرع" فهو فأس عظيم تحطم به الحجارة ،فناسب ذلك ذكر النفش

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبرى تحقيق د عبد الله بن عبد المحسن التركى ج٢٤ ص٥٩٤ دار هجر للطباعة والنشر ط١ سنة٢٠٠١م

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشرى – ص ١٢١٨. مكتبة الحلبى – القاهرة

أيضا كما ناسب ذكر القارعة ذكر "الفراش المبثوث" ؛لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر)[١] فالتعظيم والتهويل الذي حواه لفظ "القارعة " يتناسب مع ذكر "المنفوش" ، وهناك وجه آخر ذكره السامرائي لزيادة لفظ "المنفوش" يتلخص بقوله : (ناسب ذكر العهن المنفوش قوله فى آخر السورة "نار حامية" ؛لأن النار الحامية هى التى تذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش ،وذلك من شدة الحرارة ،فى حين ذكر صفة النار فى المعارج بقوله "كلا إنها لظى نزاعة للشوى" (المعارج ١٥، ١٦)والشوى :هو جلد الإنسان أقل من التى تذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة "المنفوش" فى القارعة فى كل ناحية)[٢]

وقد كرر الله تعالى لفظ "يكون" فى آيتين متجاورتين قال تعالى "يَوْمَ يَكُونُ النّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" فكرر "يكون" وكان بالإمكان أن يقول "يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش" بدون تكرار وسبب التكرار وضحه الفخر الرازى يقول: (لم يقل: يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش" بل قال "وتكون الجبال كالعهن المنفوش"؛ لأن التكرير فى هذا المقام أبلغ فى التحذير)[٣]

وكذلك فى إعادة لفظ "تكون" مع حرف العطف "يكون الناس " "وتكون الجبال" إشارة إلى اختلاف الكونين ،فإن أولهما كون إيجاد ، والثانى كون اضحلال ، وكلاهما علامة على زوال عالم وظهور آخر.

---

(١) ينظر: لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل للدكتور فاضل السامرائي ص ١٩٨ دار الشؤون الثقافية ،بغداد ،ط١ سنة ١٩٩٩م.

(٢) ينظر: المرجع السابق ص ١٩٩ ، ٢٠٠.

(٣) ينظر : التفسير الكبير ج ٣٢ ص ر٢٦٧.

لما وصف الله تعالى في الآيات السابقة حال يوم القيامة، عقَّب على ذلك بقوله تعالى :"فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ"، فقسم سبحانه وتعالى الناس في هذا اليوم إلى قسمين: أحدهما: ﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾. والثاني:﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾،وأخبر عن الأول بأنه في﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. أي: عيشة مرضية.، وأخبر عن الثاني بأن ﴿أُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾. أي: مستقرُّه، أو مسكنه. والهاوية اسم من أسماء النار؛ وكأنها النار العميقة، يهوي فيها أهل النار مهوى بعيدًا ،فبين بذلك الجزاء على الأعمال، وان أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله تعالى في نعيم، وأهل الأعمال السيئة في قعر الجحيم، وبين حال أهل الدركات، ونصب الموازين لوزن الحسنات والسيئات ،فالإنسان صاحب الميزان الثقيل والرابح " فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" أى أنه ينجو ويفوز بعمله الصالح ، وهذا مطمئن فكل هذا الاضطراب ،والطوفان ،والأمواج ،لا يؤثر أمام ثقل الميزان " وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ"، والشخص الخفيف الميزان ،الذي ليس لديه عمل صالح ،" فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ "أى مصيره جهنم يهوى ويسقط فيها ،فمكانه وملجأه ومأمنه هاوية ،وهى النار الحامية التى لا مفر له منها .

وقوله " عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" مجاز مرسل علاقته المحلية ،لأن الذي يرضى بها الذي يعيش فيها وقيل بمعنى مرضية.

ويمكن أن نجمل البلاغة الصوتية فى السورة الكريمة بصورة موجزة فنقول أنه قد تبين أن ألفاظ سورة القارعة قد غلب عليه المقاطع الصوتية المفتوحة ،وهذه المقاطع تتناسب مع دلالة التهويل والتخويف اللذين عمدت الآيات إلى بيانهما ، أما الفواصل القرآنية فقد توزعت إلى مشاهد جسدتها

سورة القارعة ،حيث كان من فواصل السورة الكريمة ما يتلائم مع المشهد النفسى الذي يمثل الاضطرابات النفسية كالحزن والأسي، وذلك عن طريق صوت – الهاء – فى الفاصلة القرآنية فى الآيات الأولى من السورة ، فصوت الهاء يوحى بالاضطرابات النفسية التى تعتري الإنسان ،وهو متوافق مع حالة البؤس والضياع، فأصل هذا الصوت مقتبس من تلك الحالات ، فهذا الصوت يضم فى طياته الاضطرابات النفسية ،والحزن والأسي ،وكون هذا الحرف من الأصوات المهموسة الضعيفة ساعد على إبراز ما يعانيه الإنسان فى هذا اليوم ،فمن يعانى من الاضطرابات النفسية والحزن والضياع لابد أن يكون ضعيف القوى ومنهمكا، وذلك لتبدد قواه على إثر ما عانى من هول المصيبة التى دهته ، وهذا المعنى يتوافق – إلى حد معين – مع من دهته قارعة القيامة ،فأذهبت لبه وشتت فكره فجاء حرف الفاصلة – الهاء- متوافقا وحال الإنسان فى ساعة القارعة ، وبذلك تكون فاصلة الآيات القرآنية جاءت ملائمة لصفات الإنسان فى يوم القارعة .

وكما كان لفاصلة الهاء مكانتها البلاغية والصوتية فى أول السورة ، فكذلك كانت لها مكانتها فى آخر السورة ،حيث جاءت الفاصلة فى مشهدين متضادين ،فالمشهد الأول حكي حال من ثقلت موازينه ،وبينت أن العيشة الراضية هى عاقبته ،وأما ما يقابلها فهى خفة الموازين والنار الحامية ،فجاء صوت الهاء لإفادة غرضين متضادين فى حين أنه ورد فى أول السورة ليبين مشهد الألم والحزن .

وصوت الهاء له من الخصائص الصوتية التى تجعله قادرا على تصوير مشهدى الحزن والفرح ،فهذا الصوت يتباين معناه بتباين كيفية نطقه، فقد يكون معبرا عن الاضطرابات النفسية سواء كانت مفرحة أم

مأساوية ،يقول دكتور حسن عباس عن صوت الهاء: (وإذا لفظ صوتها – الهاء – مخففا مرققا مطموس الاهتزازات أوحي بأرق العواطف الإنسانية وأملكها للنفس .....أما إذا لفظ صوتها بطريقة تهكمية .....كان أوحى أصوات الدنيا بالاضطرابات النفسية ،وهكذا يتحول صوت الهاء "المأساوي" إلى صوت كوميدي إن صح التعبير ،ولا فارق بين الصوتين إلا كيفية النطق بهما ،وما أكثر الخصائص الصوتية فى حرف الهاء تنوعا وتناقضا)[١].

وبهذا تكون الحالة النطقية لحرف الهاء تؤثر تأثيرا مباشرا فى المعنى، فصفات القوة والرقة لهما تأثير كبير فى معانى الألفاظ بحسب موقعها من اللفظة .

وهناك مشهد أخر قد جسد فى الفواصل القرآنية وهو مشهد الحركة والانتشار ، وكيف يكون الناس والجبال فى ساعة القارعة ،وهذا المشهد يمثل نوع آخر من الفاصلة وهو ما تتغير أحرفه ،وهذا الضرب من الفاصلة يكون مدعاة للتأمل والتفكر فى دواعى الانتقال من حرف لأخر وهذه الأحرف هى حرف الثاء وحرف الشين من كلمتى " المبثوث " و"المنفوش" ،فالصوتان لهما دلالتهما اللغوية ،أما حرف الثاء فإن فيه معنى البعثرة والتخبط [٢] ، وأما حرف الشين فبعد الاستقراء الذي أجراه حسن عباس للكلمات المنتهية بحرف الشين وجد أن عددا كبيرا منها (تدل معانيها على البعثرة والانتشار والاضطراب ماديا ومعنويا، بما يتوافق مع بعثرة النفس عند خروج صوت الشين)[٣]

---

(١) ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها حسن عباس ص ١٩٣ منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق –سوريا سنة ١٩٨٠م.
(٢) ينظر : المرجع السابق ص ٦٥
(٣) ينظر : المرجع السابق ص ١١٧.

ويقول الدكتور عمر عبد الهادى (ويتفق معنى الانتشار والتطاير والتفرش مع الخصائص الصوتية لفاصلة الثاء ، فهى صوت أسنانى يتم إنتاجه حينما يوضع طرف اللسان بين اللسان وبين الأسنان ،فيخرج الهواء منتشرا متطايرا من الأسنان إلى الخارج)[١]،أما مشهد الحركة والانتشار فى قوله: " وتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" (فيتمثل بحركة الجبال التى تتحول إلى حالة الليونة والتفرق والانتشار والتمدد حتى تصبح كالصوف المنفوش)[٢] وهذه المعاني تتوافق مع الصفات الصوتية لحرف الشين ،ولم يتوقف الأمر فى الآيتين الكريمتين عند حرفي الثاء والشين ومدى موافقتهما للفاصلة من جهة وللمعنى الدلالي من جهة أخرى ،فقد ذهب أحد الباحثين إلى عقد علاقة بين حرفى المد "الواو" فى كلمتى "المبثوث" و"المنفوش" ،ووجد أن هناك صلة معنوية يؤديها هذان الحرفان فقد ذكر :(عند الوقوف على كلمة "المبثوث "و"المنفوش" فأما المد فى الأولى فدل بجرسه على حالة الانتشار والتوزيع لذا جاء المد يتناسب مع هذا الانتشار فى مساحة الأرض طولا وقصرا، وكذلك المد فى الثانية جاء فى تشبيه "الجبال" بالصوف المنفوش حيث دلت على الانتشار له، وتشابك بعضه ببعض ليتناسب مع مد حرف الواو الذي نبع منه جرس مضطرب)[٣] وبهذا نستطيع أن نقول أن كلمتى" المبثوث" و" المنفوش" قد أدتا بمجموعهما غرضا دلاليا صوتيا ومعنويا ملائما لما أريد بيانه فى الآيتين الكريمتين .

وفى النهاية أستطيع أن أقول إن هذه السورة الكريمة ترسم مشهدا بمثابة إنذار للبشر حتى يتعظوا وينتبهوا لأعمالهم ؛لأنه يوم مليء بالأهوال والاضطرابات ،فلا ينجو إلا من ثقل ميزانه بالعمل الصالح .

---

(١) بنظر: الأسلوبية الصوتية فى الفواصل القرآنية للدكتور عمر عبد الهادى عتيق بحث منشور فى مجلة المنارة مجلد ٦ العدد ٣ جامعة ال البيت.
(٢) المرجع السابق ص ٢٦.
(٣) ينظر جماليات الموسيقى فى النص القرآنى بحث منشور للدكتور غنيم كمال أحمد – بمجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية المجلد ٢٠ العدد ٢

المبحث الثانى : سورة التكاثر

لقد تكررت وصايا الله تعالى فى كتابه الكريم ، لعباده المؤمنين ،بأن ينهجوا فى هذه الحياة الدنيا منهج المار بها غير المقيم ،منهج الذي يتخذ فيها زادا إلى الدار الآخرة دار القرار ، دار الإقامة الدائمة ،إما فى جنة أو فى نار ،ومن جملة ما جاء التنبيه فيه إلى هذه القضايا العظمى ،ما نبه الله تعالى فيه عباده المؤمنين فى سورة التكاثر وهى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

بين يدى السورة الكريمة

مناسبة السورة لما قبلها :-

بعد أن بين الله تعالى فى سورة القارعة أن المؤمن يأخذ جزاءه العيشة الراضية، والكافر يأخذ جزاءه الأم الهاوية، وإذ كان كذلك فالعاقل هو من يستقبل الأمور بما تستحقها من العناية ،فعليه أن لا يُشغل بما لا يفيده عما يفيده ،ويجب ألا يتلهي بما يكون نكالا له عما يكون نعيما له، ولكن الإنسان بطبيعته غافلا يشتغل بما ضُمن له عما طُلب منه فجاء بعد ذلك الحق فقال "ألهاكم التكاثر ... السورة ."أى انشغل الإنسان عن الأعمال التى تجعل موازينه ثقيلة وتلهى بالأشياء التى تجعل موازينه خفيفة ،تلك غفلة وذلك لهو، هكذا كان الترابط بين سورة القارعة وسورة التكاثر ، وقد ورد

فى كتب السنة النبوية ،وكتب التفسير أربعة أسماء لهذه السورة الكريمة ، ومن أشهر هذه الأسماء وأكثرها ورودا هى "التكاثر"، ولعل وجه التسمية بهذا الاسم :ورود لفظ التكاثر فى أول آية منها ،ودوران معناها حول التكاثر الملهى عن طاعة الله تعالى .فتسمية السورة الكريمة ب "التكاثر" هو الاسم المكتوب فى المصاحف ،المشهور عند القراء والمفسرين ،وسماها النبي – صلى الله عليه وسلم – باسم "ألهاكم التكاثر " ، ولعل وجه التسمية بهذا الاسم :أنه من باب تسمية السورة بفاتحتها، وترجم لها البخاري فى كتاب التفسير من صحيحه باسم "سورة ألهاكم [١] ، ولعل وجه التسمية به أنه أيضا من باب تسمية السورة بفاتحتها ، وكان أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم – يسمونها المقبرة ،وقد نقل الألوسي ذلك الأثر ولم يذكر لهذا تعليلا[٢]، ولا مانع من أن يكون للسورة أكثر من اسم كما ذكر ذلك السيوطى حيث يقول:(قد يكون للسورة اسم واحد ،وهو كثير وقد يكون لها أكثر.....فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى)[٣]و ترتيب سورة التكاثر فى المصحف الثانية بعد المائة .

*اختلف فى سبب نزول السور الكريمة فقد أورد الواحدى ما نصه: (قال مقاتل والكلبي: نزلت فى حيين من قريش :بنى عبد مناف وبني سهم ،كان بينهما لحاء ،فتعادُّوا السادة والأشراف أيُّهم أكثر ؟فقال بنو عبد مناف :نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، وأعظم نفرا، وقال بنو سهم مثل ذلك ،

(١) صحيح البخاري :كتاب التفسير ،باب تفسير سورة "ألهاكم" ج٣ ص ٣٥٥.
(٢) ينظر : روح المعانى ج ٣٠ ص ٢٢٣.
(٣) ينظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج١ ص ١٤٨ مركز الدراسات القرآنية مطبعة الأمانة العامة للشئون العلمية .

فكثرهم بنو عبد مناف ،ثم قالوا :نعد موتانا ،حتى زاروا القبور فعدُّوا موتاهم ،فكثرهم بنو سهم ،لأنهم كانوا أكثر عددا فى الجاهلية .

وقال قتادة :نزلت فى اليهود ،قالوا :نحن أكثر من بنى فلان ،وبنو فلان أكثر من بنى فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلاًّلا .)[١] وهذا الاختلاف فى سبب النزول ترتب عليه اختلاف فى مكان نزول السورة ، فقد اختلف العلماء حول مكان نزول السورة الكريمة ، فالبعض قال نزلت بمكة و هناك من قال بأنها مدنية ولكل فريق حجته فى هذا الأمر ، ومع هذا لا مانع من أن تكون السورة الكريمة مما تكرر نزوله ،فنزلت مرتين ،مرة قبل الهجرة ومرة بعدها ،وهذا واقع فى بعض السور والآيات ،كما نص عليه جماعة من العلماء ؛وأكدوا على أن لهذا التكرار حكم عظيمة وأسرار بليغة يقول الزركشي : (قد ينزل الشىء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه ، .....ثم قال والحكمة فى هذا كله : أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فيوحى إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– تلك الآية بعينها تذكيرا لهم بها وبأنها تتضمن هذه)[٢] وبهذا يمكن الجمع بين القولين ،القول بمدنية هذه السورة الكريمة، والقول بمكيتها . والله أعلم .

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها :– لاشك أن من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم تناسبه وتناسقه إلى حد أعجز الخلق أجمعين ، وقام شاهدا على أن القرآن الكريم كلام الخالق سبحانه وتعالى ،قال تعالى : "أَفَلَا

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى تحقيق السيد أحمد صقر ص ٤٩٩ (د ط)،(د ت)

(٢) ينظر البرهان للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ج١ ص ٣٠ ، ٣١ مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٤

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (النساء ٨٢) وفى بيان هذا الوجه من الإعجاز يقول العلامة الزرقانى :(وبيان ذلك : أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد ،دقيق السبك، متين الأسلوب ،قوى الاتصال ،آخذ بعضه برقاب بعض ،فى سوره وآياته وجمله)[١] وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح فى بيان المناسبة بين سورة التكاثر وبين ما سبقها وما تلاها من السور الكريمات ، أما مناسبتها بما سبقها ، فإن موضوع هذه السورة الكريمة متصل بموضوع السور السابقة واللاحقة وهو الحديث عن القيامة وأهوالها ، وعما يشغل الناس عن الاستعداد لها ،وعن منا سبتها بما سبقها يقول الرازى : (إن نظرنا إلى السورة السابقة فالمعنى :ألهاكم التكاثر عن التدبر فى أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت ،فنسيتم القبر حتى زرتموه)[٢].

ويقول البقاعى:(لما أثبت الله تعالى فى سورة القارعة أمر الساعة ، وقسم الناس فيها إلى شقى وسعيد، وختم بالشقي ،افتتح هذه السورة بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون القسم الأول ،فقال ما حاصله : انقسمتم فكان قسم منكم هالكا لأنه ""أَلْهَاكُمُ " أى :أغفلكم – إلا النادر منكم – غفلة عظيمة عن الموت الذي هو وحده كاف فى البعث على الزهد فكيف بما بعده. "التَّكَاثُر " وهو المباهاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا : المال والجاه والبنين ونحوها مما هو شاغل عن الله تعالى....)[٣]

---

(١) ينظر : مناهل فى علوم للزرقانى القرآن ج١ ص ٤٤. طبع بمطبعة عيسي البابي الحلبي وشركاه (د.ط) و(د.ت)
(٢) ينظر :؛ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج ٣٢ ص٧٧
(٣) ينظر نظم الدرر للبقاعى فى تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبى الحسن البقاعى ج ٨ ص ٥١٦ دار الكتاب الإسلامى بالقاهر

وتدور سورة التكاثر كلها حول موضوع واحد وهو ذم وتحذير وتوعد المنشغلين بالدنيا الفانية عن الآخرة الباقية قال الفيروزابادى: (معظم مقصود السورة: ذم المقبلين على الدنيا، والمفتخرين بالمال ،وبيان أن عاقبة الكل الموت والزوال، وأن نصيب الغافلين العقوبة والنكال ، والمذلة والحساب والسؤال) (١)

البلاغة الصوتية لسورة التكاثر :-

بدأت سورة التكاثر بداية قوية وكأنما هي نذير لهؤلاء الذين انشغلوا بالحياة الدنيا المتكالبين على جمع حطامها الفانى ،حتى تنقضى أعمارهم ، ويقطع الموت عليهم متعتهم فقال تعالى "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ" فمعناها :أى شغلكم التفاخر والتباهي يقول الراغب : (اللهو كل ما يشغل الإنسان عما يعينه ويهمه ومنه "لَاهِيَة قُلُوبُهُمْ" (الأنبياء٣) أى ساهية مشتغلة بما لا يعنيها ، ويراد باللهو أيضا : الغفلة ، والمعنى :جعلكم لاهين أى غافلين)(٢) ، فاللهو: الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى ،والاشتغال بالمتع العاجلة عن الدار الباقية أما "التكاثر" فهو :التباري فى الكثرة فى المال والجاه والمناقب وغير ذلك ، والتباهى بها بأن يقول هؤلاء :نحن أكثر وهؤلاء :نحن أكثر ،يقال تكاثر القوم :إذا تعادوا ما لهم من كثرة المناقب (٣) .

وقد أشار سيد قطب فى كتابه ظلال القرآن إلى ما فى هذه السورة الكريمة من موسيقى لغوية توحى بدلالتها العظيمة ، واتخذ من هذه

---

(١) ينظر : بصائر ذوى التمييز ج ١ ص ٥٤٠

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ غريب القران الكريم للراغب الأصفهانى ص٧٤٨، ٧٤٩ و الكشاف للزمخشرى ج ٤ ص ٧٩٨

(٣) ينظر : الكشاف ص ١٢١٨ ، و روح المعانى للألوسي ج ٣٠ ص ٢٢٣

الموسيقى محورا تفسيريا إلى نهاية السورة فقال : (هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هى صوت نذير ،قائم على شرف عال يمد بصوته ويدوي بنبرته ،يصيح بنوم غافلين مخمورين سادرين ،أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور ،فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ " "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ"، أيها السادرون المخمورون ،أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه ،أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ،استيقظوا وانظروا ..فقد "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ")[١].

فإذا أردنا أن نستشعر هذه الموسيقي الموحية ونكشف عن مقوماتها المعجزة التى جعلت لها تلك المكانة فى البلاغة فإننا نجد أول ما يطلعنا فى السورة الكريمة وأول ما تبدأ به هو حرف الهمزة ذلك الصوت الانفجاري الحنجري الثقيل ،والذي ينتج بانغلاق الوترين الصوتيين بصورة محكمة ثم انفتاحهما بصورة خاطفة [٢] ،وكأن هذا الصوت بخصائصه يهيئ السامع لسماع السورة وتدبرها، كما أنه يوحى بعظم ما بعده من أمر، لابد من التنبيه عليه ،ويدعمه فى ذلك الصوتان اللذان يقعان معه فى المقطع الصوتى ذاته ،وهما اللام والهاء ، فإننا نجد فى هذه المقاطع القوية ما نجده في ضحك اللاهي الغافل وقهقهته ، فصوت الهاء يوحى باحتكاكه الرخو المهموس بحبور اللهو الضاحك ، ونجد صوت الكاف الذى يدعم بهمسه

(١) ينظر: فى ظلال القرآن ص٤٤٦ ٤

(٢) ينظر: المنهج الصوتى للبنية العربية رؤية جديدة فى الصرف العربى د عبد الصبور شاهين ص٢٨ مؤسسة الرسالة طبعة سنة ١٩٨٠

إيحاء الهاء، ويوحى بانفجاره ما فى طبيعة اللهو من القسوة والبعد عن الحق والصواب، كما أن حرف الهاء وما فيه من طول فى النطق يوحى بطول هذا اللهو الذى يستغرق عمر اللاهيين كله ، فعندما نقرأ " أَلْهَاكُم " فإننا نستشعر أيام هذا العمر ممتدة بانفتاح النفس وامتداده مع هذه المقاطع بفتحاتها الطويلة ، ثم تأتى المقاطع الصوتية فى لفظ" التَّكَاثُر حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" وما فيها من اضطراب نتج عن حرف التاء المتكرر ليعكس بذلك ما يجده اللاهى فى لهوه من توتر وضلال وتخبط ،ولك تستوحي شدة هذا الضلال والضياع ، فى هذه التاءات المدغمة فى "التكاثر "و"زرتم " ، وفى لفظ "التكاثر" ما يوحى بالتتابع والتناسل والاستمرار، وقد ساعد حرف الراء الساكن فى نهاية الكلمة على التعبير عن هذا المعنى ،فتسكين الراء فى نهاية الكلمة بالوقف يجعل صوتها تكراريا يصدر (بتكرار ضربات اللسان على مؤخر اللثة تكرارا سريعا)[١] .

ولو نظرنا بتأمل للحركات الإعرابية فى قوله " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" ، لوجدناه ذا نسق عجيب فريد ، حيث تبدأ الآيتان بثلاث فتحات تليها ضمتان فى " أَلْهَاكُم " ثم ثلاث فتحات فضمتا ن فى "التكاثر" ثم ثلاث فتحات فى "حتى" ثم ثلاث ضمات فى" زُرْتُمُ" ثم ثلاث فتحات فكسرة ففتحة فى" الْمَقَابِرَ" ولا شك فى أن هذا التوزيع المنظم ، الذي تتناوب به الحركات ،يحقق تناغما متكاملا، من شأنه أن يستولى على الآذان والقلوب ، فالحركات توافق حال الإنسان ، الذى يبدأ بحياة واسعة طليقة ،على وجه الأرض،ثم ينتقل بعدها إلى ضيق القبور تحت الأرض ،ثم إلى حياة الآخرة.

(١) ينظر : علم الأصوات كمال بشر ص ٣٤٥ القاهرة دار غريب سنة ٢٠٠٠م

وإذا كان لفظ "ألهاكم" بمعنى شغلكم إلا أن ألهاكم أبلغ فى الذم من شغلكم ؛وذلك لعدم التلاؤم بين اللهو والاشتغال ،ذلك لأن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به، بينما اللهو ذهول وإعراض [١] ،كما أن استعمال الفعل" ألهاكم" مع لفظ" التكاثر" أبلغ من شغلكم من جهة أخري وهى أن لفظ "ألهاكم" دليل على أن المقصود بالتكاثر هنا هو التكاثر الملهى عن طاعة الله والاستعداد للآخرة ،وعليه فإن "ال" فى لفظ "التكاثر" للعهد الذهنى وليسا للاستغراق .

وقوله: "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر "هل هو على سبيل الإخبار من الله –جلا وعلا– أو على سبيل الاستفهام يعني ءألهاكم؟ يعني أشغلكم؟ وصدكم عن الأهم؟ فالإنسان مخلوق لهدف عظيم وغاية نبيلة وهدف أسمى وهو تحقيق العبودية لله –جل وعلا–، فكونه ينشغل عن هذا الهدف بغيره والسياق سياق ذم يكون مذمومًا بهذه الآية "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر"، وسواء كان إخبارا أو استفهاما إنكاريا بتقدير الهمزة كله يدل على أن السياق سياق ذم وأن من ينشغل عما خلق له فهو مذموم،والمعنى يا غفلاً عمَّا خُلِقْتَ لَهُ انتبه .

والتكاثر فى مطلقه ليس بمذموم ،بل أن فيه ما يكون فى الطاعات والأخلاق والعلوم والمعارف وغيرها ، من أسباب السعادة الأخروية ، وهذا مطلوب شرعا وليس بمذموم قال تعالى" وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين ٢٦) فبهذا التكاثر تنال السعادة فى الدارين يقول الرازى : (فمطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر فى العلم والطاعة والأخلاق الحميدة هو محمود ،وهو أصل الخيرات ، فالألف واللام فى التكاثر ليسا

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم الجوزيه تحقيق محمد عزيز شمس ص ٤٣ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (د. ط)(و (د. ت)

للاستغراق ،بل للمعهود السبق ،وهو التكاثر فى الدنيا ولذاتها ، فإنه هو الذى يمنع عن الطاعة الله تعالى وعبادته ،ولما كان ذلك مقررا فى العقول ومتفقا عليه فى الأديان ،لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه)[١]، وعليه فالتكاثر من حيث تعلق الذم والحمد قسمان : مذموم ومحمود ، والمحمود منه: هو التكاثر الذى لا يزال يذكر بالله تعالى ولقائه ، والمذموم : هو تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم ، فهذا تكاثر مله عن طاعة الله والاستعداد للقائه .

وقد سيقت السورة الكريمة على ضمير المخاطب من أولها إلى آخرها ،وقد اختلفت كلمة المفسرين فى المخاطب بها ، ورجح بعضهم كون الخطاب عاما لكل من اتصف بهذا الوصف ،من المؤمنين وغيرهم قال ابن القيم : (الخطاب فى قوله تعالى " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...." خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف ،وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله)[٢].

ولم يعين الله تعالى المتكاثر به بل تركه ولعل السر فى ذلك هو :

١- إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به ، كما يقال شغلك اللهو واللعب ،ولم يذكر ما يلهو ويلعب به .

٢- وإما لإرادة الإطلاق ،لأن الإطلاق أبلغ فى الذم ، أما المتكاثر به فهو كل ما ينشغل به الناس عن طاعة الله تعالى ،والاستعداد ليوم الحساب .

أما قوله " حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" فإن زيارة المقابر أما أن يكون اللفظ على حقيقته أى شغلكم حرصكم علي التباري والتباهى بمتع الدنيا الزائلة

(١) ينظر التفسير الكبير لـ فخر الدين الرازي ج ٣٢ ص ٧٣

(٢) ينظر : التفسير القيم للإمام ابن القيم تحقيق محمد حامد الفقى ص ٥٢٠ دار الكتب العلمية بيروت لبنان (د. ط) و(د زت)

عن طاعة الله والاستعداد ليوم الحساب حتى زرتم المقابر، لتتباهوا وتتفاخروا بالأموات ولم تتعظوا بمن سبقكم فيها من الأموات ، والآيتان على هذا الوجه خبر أريد به التقريع والتوبيخ والتحذير لمن هم على تلك الحالة من الغفلة والبلادة .

وإما أن يكون زيارة المقابر كناية عن الموت أى شغلكم حرصكم المستمر على متع الدنيا الزائلة عن طاعة الله والاستعداد ليوم الحساب حتى فاجأكم الموت وأنتم على تلك الحالة وصرتم من أهل القبور بعد أن كنتم من أهل الدور والقصور ، والآيتان على هذا الوجه خبر أريد به التعجب والتحسر والتحذير من هذا المصير المشؤوم الذى لا يتمناه ولا يرجوه عاقل، وفى التعبير عن الموت بزيارة المقابر إشارة إلى قصر المدة فى القبور ، وإلى تحقق البعث ،فقد ذكر بعض المفسرين أن إعرابيا سمع ذلك فقال: بعث القوم للقيامة ورب الكعبة ،فإن الزائر منصرف لا مقيم)[1]

وفى التعبير بلفظ "حتى" التى تدل على انتهاء الغاية ما يشير إلى إصرارهم على التلاهى بالدنيا عن طاعة الله تعالى ،وأنه لا يزال طبعا لهم، فقد استمر اغترارهم بالدنيا حتى فاجأهم الموت ونقلوا على غير عدة واستعداد إلى مقابرهم.

ومن بلاغة القرآن الكريم فى اختيار ألفاظه ،ما نجده من دلالة فى الفعل "زرتم " الذي اختاره الله تعالى دون الأفعال المعبرة عن الموت كـ"متم"، أو "هلكتم" فهذا الفعل يشير فى هذه السورة إلى مراحل الإنسان الثلاث: الحياة الدنيا ، والحياة البرزخية ، والحياة الآخرة ؛لأن فى الزيارة – كما هو

(١) ينظر : روح المعانى ج ٣٠ ص٢٢٤

معلوم ومستقر فى أذهاننا – ذهابا وإيابا أى أن الإنسان إذا حل ضيفا بمكان، فمهما طالت إقامته فلا بد من الرحيل ،وفى هذا ما يشير إلى قصر المدة فى القبور ، وإلى تحقق البعث ،فما المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله ،من جنة أو نار ، أما الفعل "مات" أو "هلك"فلا يدل على هذا المعنى الذى دل عليه الفعل "زار" فليس فيهما إلا الذهاب ، يقول البقاعى فى هذا المعنى (ولما كانوا ينكرون البعث ،ويعتقدون دوام الإقامة فى القبور ، عبر بالزيارة ؛إشارة إلى أن البعث لابد منه ولا مرية فيه ، وأن اللبث فى البرزخ وإن طال فإنما هو كلبث الزائر عند مزوره فى جنب الإقامة بعد البعث فى دار النعيم أو غار الجحيم ،وأن الإقامة فيه محبوبة للعلم بما بعده من الأهوال والشدائد والأوجال) [(١)].

وتنتقل السورة بعد ذلك ،كما يقول سيد قطب ،(إلى قرع قلوب اللاهين، بهول ما ينتظرهم هناك ،بعد زيارة المقابر ،فى إيقاع رزين فيقول تعالى " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ"، ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه، وجرسه الرهيب الرصين " ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ"، ثم يزيد هذا التوكيد عمقا ورهبة ،وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل ،لا يتبينون حقيقته الهائلة ،فى غمرة الخمار والاستكثار :" كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ")[(٢)] ،فهذه الآيات الثلاث بما تحمله من ردع وتنبيه، على أن الأمر الذي ينبغ أن يكون عليه اللاهون بتكاثرهم وأموالهم ،هو طاعة الله، والإيمان بنبيه عليه السلام وليس التكاثر[(٣)]،

(١) ينظر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ج ٢٢ ص ٢٢٦ دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة (د. ط) (د . ت).

(٢) ينظر فى ظلال القرآن ص ٤٦٤٤

(٣) ينظر معانى القرآن و إعرابه للزجاج أبى اسحاق إبراهيم بن السري تحقيق /محمد عبد الجليل عبده شلبي ج ٥ ص ٣٥٧

ويتحقق فى هذه الآيات ما يعرف بالتصاعد النغمى أو القولى وهو البدء بجملة قصيرة ، وإتباعها جملة أطول فأطول ،فى تسلسل متصاعد يشد بعضه بعضا [١] ،فنجد أن الجملة الأولى " كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" أقصر من الآية التى تليها "ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" والثالثة أطولهم جميعا وهى" كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ"، فالآيات قد تحقق فيها ترتيبا تصاعديا قوليا ،وهذا الترتيب والتنسيق من شأنه أن يحقق فى الآيات موسيقى متزنة تثير فى القارىء انتباها عجيبا ،كالذي يثيره عقد منظوم ،تتخذ الخرزة من خرزاته فى موضع ما شكلا خاصا ،وحجما خاصا ،ولونا خاصا [٢] ، وتكرار "كلا"لا شك فى أنه يعطى الآيات نغما موسيقيا يشد الآذان إليه ،والأذهان شدا لا يقاوم ،كما أن تكرارها يوحى كذلك بدلالة الردع ،ففى تكرارها ثلاث مرات زجر وكف ومنع ،وحسبك ما يوقعه التكرار فى روعك من دلالة ، فإذا نظرنا إلى الآيات الثلاث نجد أن الآية الأولى جاءت زاجرة مهددة :" كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" أى: ارتدعوا أيها الناس ،وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ،ولا يفيد ؛فسوف تعلمون عاقبة جهلكم ،وتفريطكم فى جنب الله، وانشغالكم بالفاني عن الباقى. فهى ردع وزجر عن الاشتغال بالتكاثر ، فافتتاح الآيات بأداة الردع والزجر "كلا" للتنبيه على خطئهم فى اعتقادهم أن الفوز فى التكاثر بمتاع الدنيا،وإنما الفوز فى طاعة الله والاستعداد للقائه ،وكأنه يقول لهم :ليس الأمر على ما زعمتم وتوهمتم من أن الفوز بكثرة متاع الدنيا ،وإنما الفوز فى طاعة الله والاستعداد للقائه .

---

(١) ينظر: لغة القرآن الكريم فى جزء عم / نحلة محمود أحمد ص٣٦٧ ، بيروت :دار النهضة العربية سنة ١٩٨١م .و الأسلوبية الصوتية / الضالع محمد صالح ص١٢٣ القاهرة دار غريب سنة ٢٠٠٢م

(٢) ينظر: موسيقى الشعر /:أنيس إبراهيم ص ١١ مكتبة الأنجلو المصرية ط٢ سنة ١٩٥٢م

وتأتى الآية الثانية " ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" وتكرر "كلا" لتأكيد الردع والزجر ،فهى وعيد إثر وعيد، زيادة فى الزجر والتهديد ،أى :سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم ، إذا نزل بكم الموت،، وعاينتم أهواله وشدائده ، وأتى بـ" ثُمَّ" للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول ، يقول الزمخشري: (والتكرير تأكيد للردع والإنذار ،كما تقول للمنصوح :أقول لك ، ثم أقول لك :لا تفعل ، و" ثُمَّ" دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ [١]، ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة فعطف)[٢].

وتأتى الآية الأخيرة :" كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ"، تأكيدا إثر تأكيد ، للزجر والتهديد : أى ارتدعوا وانزجروا ؛فلو علمتم العلم الحقيقي ،الذى لا شك فيه ولا امتراء ؛ وجواب "لو" محذوف لقصد التهويل أى لو عرفتم لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله تعالى ، ولما خدعتم بنعيم الدنيا ،عن أهوال الآخرة وشدائدها [٣]،، ففى حذف جواب "لو" ما يدل على المبالغة فى التهويل ؛ ليذهب الخيال فى تقديره كل مذهب ،فيكون التهويل أعظم .

والتكرار فى القرآن الكريم ظاهرة إيجابية، تؤدى دورا موسيقيا ودلاليا فى آن واحد ،حيث تضفي على السورة معانى وأبعادا جديدة ، والتكرار فى هذه الآيات يكثف لهذا الأمر الجلل ،الذى يبعث فيك الخوف والرهبة ؛لتفطن لنفسك، فتنقذها مما هى فيه من غفلة مهلكة، كما يكثف هذا الشعور الخائف المرتبك ،الذي يتصاعد أيضا، مع هذا التصاعد النغمي فى هذه الآيات ،فهذا التصاعد من شأنه أن ينقل إحساسك من درجة إلى درجة أعلى فأعلى ، وكأنه يصور فيك تنفس الصعداء ،أمام هذا التهديد والوعيد .

---

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري ج٤ ص ٧٩٨.
(٢) ينظر : روح المعانى ج ٣٠ ص ٢٢٤.
(٣) ينظر : صفوة التفاسير محمد على الصابونى ج ٣ ص ٥٩٨ دار الرشيد سوريا – حلب ط ٢ (د .ت)

ويري بعض المفسرين أن هذا التكرار ليس للتأكيد ،بل أن العلم الأول فى قوله :" كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" يكون للمعاينة ونزول القبر، والعلم الثانى "ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" يكون فى القبر ، وعلى ذلك هناك عِلمان كما أن هناك رؤيتان مختلفتان للجحيم يوم القيامة على ما سيأتي فى آخر السورة ،وقد ذكر ذلك ابن القيم ودلل على صحته يقول:(وقوله تعالى :" كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" قيل :تأكيد لحصول العلم كقوله تعالى :" كَلَّا سَيَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ"

(النبأ ٤،٥)،وقيل :ليس تأكيدا ،بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثانى فى القبر، هذا قول الحسن ،ومقاتل ،ورواه عطاء عن ابن عباس ، ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه :

أحدهما : أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل ،وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة .

الثانى :توسط "ثم" بين العِلْمين، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانا وخطرا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع ،فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ،ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علما فوق الأول .

الرابع: أن عليا بن أبى طالب – رضى الله عنه– وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر، قال رضى الله عنه :"ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ" .

الخامس :أن هذا مطابق لما بعده من قوله تعالى :" لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ"، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين..)[1]

(١) ينظر : التفسير القيم للإمام ابن القيم تحقيق محمد حامد الفقى ص ٥١٥، ٥١٦ دار الكتب العلمية بيروت لبنان (د ط)و(د ت) .

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى إيقاع معبر يرسم مشهدا يرى ويشاهد فقال" لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ"،وقد اختلف المفسرون فى بيان المخاطب فى هذه الآيات فقال بعض المفسرين أن الخطاب خاص بالمشركين، قال الطاهر بن عاشور : (وهذا الخطاب للمشركين الذين لا يؤمنون بالجزاء وليس خطابا للمسلمين ؛لأن المسلمين يعلمون ذلك علم اليقين...والإخبار عن رؤيتهم الجحيم كناية عن الوقوع فيها ،فإن الوقوع فى الشىء يستلزم رؤيته ،فيكنى بالرؤية عن الحضور) (١)

يرجح بعض المفسرين أن الخطاب فى الآيات للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ،وهذه الآية كقوله تعالى "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا "(مريم ٧١)،وعليه فالرؤية على الرأى الأول رؤية دخول ، أما على الرأى الثانى فالرؤية بصرية والجميع يراها ،المؤمن يراها وينجو منها ، والكافر يراها ويدخل فيها ،فهى للكافر دار ، وللمؤمن ممر .

وقوله" " لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ" جواب قسم محذوف ،أكد به الوعيد وشدد جبه التهديد ، وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه ،تفخيما وتعظيما ،ففى إيضاح الشىء بعد إبهامه ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم ،والمعنى :والله لترون الجحيم ،أى فى الآخرة)(٢).

والآية الكريمة تجعل الإنسان يحس برهبة الموقف وشدته ،كما أنها تصور عظم المشهد، وثقل الأمر على النفس فالله – عز وجل– يقسم ويؤكد أننا سنشاهد الجحيم عيانا ويقينا ، وإذا نظرنا للفظ" الجحيم " نستشعر ما

(١) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٥٢٢.
(٢) ينظر : الكشاف ص ١٢١٩ وروح المعانى ج ٣٠ ص ٢٢٥

يحمله من دلالة تقشعر لها الأبدان ، زيادة فى الإنذار والتنبيه ،الذي يوحى بعظمه ،وشدة عذابه ، وحسبك ما يثيره تنغيم القسم الذى يقع على هاتين الآيتين من دلالة فى الذهن، فإنه ليشعرنا بخطورة ما تحمله الآيتان من معان ؛ وتحقيق التنغيم فى جزء من الكلام دون غيره ،يدل على أهمية هذا الجزء وعناية القائل به ،فكيف إذا كان الله – عز وجل – هو القائل ، وكان التنغيم تنغيم قسم ؟

وهذا التنغيم من شأنه كذلك أن يعمق معانى الآيتين فى النفس ،وأن يزيدهما تأكيدا على تأكيد ،بما يحققه من وقع موسيقى متميز فى الآذان ، فهو اهتزاز متغير للوترين الصوتيين ،فى الحنجرة [١] يرتفع الصوت به وينخفض ، فى أثناء الكلام [٢] ويدعمه فى ذلك ،ما فى الآيتين من إطناب ، بتكرار الفعل "لترون" ؛لبيان شدة الهول [٣] .

ومما يزيد من الجمال الموسيقى للسورة الكريمة ،أن هناك بعض الحروف الرنانة ذات الجروس المتميزة ،التى ترد أكثر من مرة فى السورة مثل النون والميم اللتان تردان(٣٢) مرة فى السورة فمعهما يخرج صوت الغنة و(الغنة من علامات قوة الحرف)[٤]؛لما فيها من (تردد موسيقى محبب)[٥]، وقد توصل الدكتور محمد فريد عبدالله ، من خلال بحثه فى الصوت اللغوى ودلالاته فى القرآن الكريم إلى أن غنة الميم والنون :(صوت

(١) ينظر: فى علم اللغة غازى مختار طليمات ص١٥٤ دمشق دار طلاس ط٢ سنة٢٠٠٠م
(٢) ينظر : مناهج البحث فى اللغة تمام حسان ص ١٦٤ القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٩٠م.
(٣) ينظر: صفوة التفاسير للصابونى ج ٣ ص ٥٩٩
(٤) ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة مكى بن أبى طالب القيسي تحقيق مكتبة قرطبة للبحث العلمى ص٧٠ مؤسسة قرطبة ط ١ (د.ت)
(٥) ينظر : الأصوات اللغوية أنيس ابراهيم ص ٦٩

دال على الالتزام ،ومكابدة الأمر)[١]،وهذا الإيحاء بلا شك يوائم ما جاء فى السورة الكريمة من معانى الإلزام المؤكدة ، فالناس ستري جهنم يوم القيامة ملزمين مكابدين شدة هذا الموقف وهوله ؛ وسنقف يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى ملزمين مكابدين هول الحساب ؛وسيعلم اللاهى عاقبة لهوه الغافل ، حيث لا فرار ولا نجاة .

بعد ذلك تلقى السورة بالإيقاع الأخير ،الذي يدع المخمور يفيق ،والغافل يتنبه ،والسادر يلتفت والناعم يرتعش ويرتجف ،مما فى يديه من نعيم " ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ")[٢]

ففى هذا الإيقاع ما يشعر برهبة السؤال الأخير ورعشته ،سؤال الميزان الذى يحدد المصير ،فإما إلى جنة ،وإما إلى نار – والعياذ بالله– ؛فيتحقق فى هذه الآية تنغيم القسم ، فهو بجرسه العميق المؤكد ، وإيقاعه يشد بقبضته على مشاعر الإنسان ، كما يتحقق فى هذه الآية ثقل نطقى فى قوله "يَوْمَئِذٍ" من شأنه أن يصور ثقل السؤال على النفس ،وارتباك المسؤول أمام السائل – عز وجل – وأن يضع الإنسان فى هول الموقف وشدته .

وإذا نظرنا لمجموع الحروف فى هذه الآية وحركاتها الإعرابية، فإننا نجدها توحى بصورة اللسان المرتبك بجوابه أمام هذا السؤال العظيم يوم الحساب ، ففى الحروف خط حركي غير ثابت ،فهو تارة يتسع ويرتفع بالفتحة ،وتارة يضيق وينخفض وضوحه بالضمة أو الكسرة مستمرا فى الآية كلها على هذه الحال .

---

(١) ينظر: الصوت اللغوى ودلالاته فى القرآن الكريم للدكتور محمد عبدالله فريد ص ١٣٩ بيروت دار الهلال ومكتبتها ط١ سنة ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: فى ظلال القرآن سيد قطب ص ٣٩٦٣

ومن الملاحظ أن السورة الكريمة قد بدأت بحرف الهمزة الذي ينتجه أول مخارج الجهاز النطقى :الحنجرة ،وانتهت بحرف الميم الذي ينتجه آخر مخارج الجهاز النطقى : وهي الشفتان اللتان تنطبقان فى أثناء نطق هذا الصوت (١) وبذلك حصرت السورة من أول المخارج وآخرها ،وكأن الله – عز وجل– قد بدأ ونهى فلا نقاش ولا جدال ، وكون السورة تبدأ بحرف الهمزة الذي هو أول المخارج ،ثم يتوسطها باقى الحروف التى تكونت منها السورة ،ثم تنتهي بحرف الميم ،لا شك فى أن هذا التدرج المخرجى يزيد من عذوبة موسيقى السورة وجمالها ،وذلك بما يحدثه من تناغم منظم بين آياتها .

والسورة الكريمة تميزت بوضوح سمعى عال ،لما اشتملت عليه من الحروف التى تتسم بالوضوح والعلو كاللام ،والراء، والميم، والنون ،إضافة إلى ما أضفاه عليها تنغيم القسم الذي اتصفت به فى الآيات الثلاث الأخيرة من السورة وما فيه من الوضوح لكونه اهتزازا فى الوترين الصوتيين .

كما اتسمت هذه السورة الكريمة بأنها ذات سلاسة نطقية ، وهذا الوضوح وهذه السلاسة فى النطق، من شأنهما أن تحققا لفت انتباه متميزا عند المتلقى ؛ لكونهما عنصرين رئيسيين من عناصر الموسيقى اللغوية الجذابة ،وهما بذلك موافقين ما تحمله السورة الكريمة من مضمون الإنذار والتذكير والوعظ.

والسورة الكريمة تميزت أيضا بالفواصل القرآنية ،فالفاصلة تأتى فى نهاية الآية ؛لتحقق للنص جانبا جماليا ،لا يخطئه الذوق السليم ؛لأننا مهما

(١) ينظر : علم اللغة مقدمة للقارىء العربي محمود السعران ص ١٦٨ دار النهضة العربية بيروت (دط)و د. ت)

يكن من شيء ،نحس أنها تزيد النص قيمة صوتية منتظمة ، تقسم سياقه على وحدات أدائية ، تعد معالم للوقف والابتداء ،ومما يزيد موسيقى هذه السورة جمالا ، إلى جانب توافق الفواصل فيها ، قصر آياتها ، فـ (يحدثنا من كتبوا فى علم النفس الموسيقى عن كيفية شعور المرء بنغم الكلام فيقولون :إن هناك ميلا غرزيا فى كل كتلة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار، أو العبارات الصغيرة ،فقد نسمع فى عشر من الثوانى، ما يكاد يبلغ خمسين مقطعا صوتيا ،تسمعها الأذن، فتلتقطها كتلا من المقاطع تطول أو تقصر ،فإذا ترددت فى أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها؛ شعرنا بسهولة ترديدها ،وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها ،وبعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها)[١]

والثقل النطقى الذي تحدثه مقاطع هذه السورة الكريمة ،يحقق لها التأثير الأهم عند المتلقى ؛فقارئ هذه السورة ،كما يقول سيد قطب يشعر من خلال إيقاعاتها ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة، التى يحياها على الأرض ؛فينشيء يحاسب نفسه على الكبيرة والصغيرة)[٢].

وفى الختام أنهي هذا الحديث عن تلك السورة العظيمة بـ (إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها ،وتلقى فى الحسن ما تلقى بمعناها وإيقاعها ، وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة، عن سفاف الحياة الدنيا، وصغائر اهتماماتها التى يهش لها الفارغون)[٣]

****

(١) ينظر : موسيقي الشعر دكتور إبراهيم أنيس ص ٩ ٥٢ .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن سيد قطب ج ٦ ص ٣٩٦٣.
(٣) ينظر : المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

المبحث الثالث (سورة الناس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

بين يدى السورة الكريمة

سورة الناس سورة مكية ،ختم بها القرآن الكريم وهى ثانى المعوذتين يقول عنها الصابونى (فيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء ،أبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن ،الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء ، وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدىء بالفاتحة ،ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم ،وذلك غاية الحسن والجمال ،لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه ،من بداية الأمر إلى نهايته)[١]

اسم سورة (الناس)

وردت ثلاثة أسماء لسورة الناس ،اثنان منها يتصلان بسياق الحال "التداولي" ،وهما "قل أعوذ برب الناس "و" المعوذتان" ،وهو مشترك مع سورة "الفلق" والاسم الثالث وهو"الناس" ،الذى يتصل بمقتضيات الحال ولكل اسم من هذه الأسماء وجه تسمية السورة الكريمة به والأدلة على ذلك ،

١- سورة قل أعوذ برب الناس: وقد سماها النبي -صلي الله عليه وسلم بذلك ،فعن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله -صلي الله عليه وسلم-: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ،قل أعوذ برب الفلق ،وقل أعوذ برب الناس)[٢].

---

(١) ينظر :صفوة التفاسير ج ٣ ص ٦٢٥

(٢) رواه مسلم كتاب صلاة المسافر -باب فضل قراءة المعوذتين رقم الحديث ٢٤٦.

٢- سورة الناس : سبب تسميتها بهذا الاسم لأنها بدأت بقوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ"، ومثلها مثل باقي السور التي لم يرد في تسميتها حديث شريف، وإنما سُميت باجتهاد الصحابة -رضوان الله عليهم-، والذين كانوا يُطلقون على السور أسماء بحسب ما يرد فيها من موضوع، وسورة الناس بدأ بذكر الناس وأنّ الله تعالى هو ربّ الناس، فسميت سورة الناس.

٣- المعوذتان : وقد وردت هذه التسمية عن النبي -صلى الله عليه وسلم - فعن عقبة بن عامر ، قال : قال لى رسول الله -صلى الله عليه وسلم : (أُنزل ،أو أُنزلت على آيات لم ير مثلهن قط ، المعوذتين)[١]

فضل سورة الناس

لسورة الناس فضل كبير، ومن فضلها يُذكر الآتي:

١- إثبات الربوبية، والملك، والألوهية لله سبحانه وتعالى وحده، فهو ربّ الناس، وملكهم، وإلههم.

٢- أنها لم يرمثلها فى معناها لما جمعت من فنون الاستعاذة ،فعن عقبة بن عامر قال : قال لى رسول الله -صلى الله عليه وسلم :(أُنزل ،أو أُنزلت على آيات لم ير مثلهن قط ، المعوذتين)[٢]

٣- أنها من أعظم الرقى والتحصين ،فعن أبى سعيد قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما)[٣]

(١) المرجع السابق حديث رقم ٢٦٥
(٢) رواه مسلم كتاب صلاة المسافر -باب فضل قراءة المعوذتين رقم الحديث ٢٤٦
(٣) رواه الترميذى فى جامعه -باب ما جاء فى الرقى بالمعوذتين حديث رقم ٢٠٥٨.

٤- استحباب قراءة سورتي الفلق والناس (المعوذتين)، وسورة الإخلاص في الصباح والمساء ثلاث مرات، وقراءتهما على المَرضى، والمَسحورين.

سبب نزول سورة الناس :

ورد فى سبب نزول سورة الفلق والناس -وقد نزلتا معا-،أنها نزلت بسبب سحر لبيد بن الأعصم اليهودى للنبي -صلي الله عليه وسلم- ودليل ذلك ما رواه البخارى عن عائشة -رضى الله عنها قالت : (سُحِرَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم حتى إنه لَيُخَيَّلُ إليه أنه يَفعَلُ الشيءَ وما فعَله، حتى إذا كان ذاتَ يومٍ وهو عِندي، دَعا اللهَ ودَعاه، ثم قال: (أشعَرْتِ يا عائشةُ أن اللهَ قد أفتاني فيما استفتَيْتُه فيه)، قلتُ: وما ذاك يا رسولَ اللهِ ؟ قال: (جاءَني رجلانِ، فجلَس أحدُهما عِندَ رأسي، والآخَرُ عِندَ رِجلي، ثم قال أحدُهما لصاحبِه: ما وجَعُ الرجلِ؟ قال: مَطبوبٌ، قال: ومَن طَبَّه ؟ قال: لَبيدُ بنُ الأعصَمِ اليهودِيُّ من بني زُرَيقٍ، قال: في ماذا؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطَةٍ وجُفِّ طَلعَةٍ ذكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في بئرِ ذي أَروانَ)، قال: فذهَب النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم في أُناسٍ من أصحابِه إلى البئرِ، فنظَر إليها وعليها نخلٌ، ثم رجَع إلى عائشةَ فقال: (واللهِ لكأنّ ماءَها نُقاعَةُ الحِنّاءِ، ولكأنّ نخلَها رُؤوسُ الشياطينِ)، قلتُ: يا رسولَ اللهِ أفأخرَجتَه؟ قال: (لا، أما أنا فقد عافاني اللهُ وشَفاني، وخَشِيتُ أن أثَوِّرَ على الناسِ منه شَرًّا)، وأمَر بها فدُفِنَتْ)[1]

(١) رواه البخاري ومسلم فى البخاري كتاب الطب باب السحر حديث رقم ٥٧٦٣ وفى صحيح مسلم كتاب السلام حديث رقم ٤٣.

مقاصد السورة :-

قال ابن عاشور:(والغرض منها تعليم النبي –صلى الله عليه وسلم– كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى شره من المخلوقات الشريرة ،والأوقات التى يكثر فيها حدوث الشر ،والأحوال التى يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يرمى فاعلوها بتبعاتها ، فعلم الله نبيه هذه المعوذة ليتعوذ بها ،وقد ثبت أن النبي –صلى الله عليه وسلم – كان يتعوذ بها وبسورة الفلق ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما) (١)

البلاغة الصوتية لسورة الناس

فى هذه السورة الكريم(يوجه الله – سبحانه وتعالى– رسوله – صلى الله عليه وسلم – وأمته ،إلى العياذ به الالتجاء إليه ،مع استحضار معانى صفاته :الرب ،والملك ،والإله ، من شر خفى الدبيب، فلا قبل لهم بدفعه ،إلا بعون من الرب الملك الإله ؛ فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ،ويأتيهم من حيث لا يحتسبون)(٢)،

وقوله تعالى "قل " فى بداية السورة ، أسلوبٌ إنشائي، ونوعُه أمر، وغرضُه البلاغي النُّصح والإرشاد والتوجيه، وفيه كنايةٌ عن صِدْق رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فيما بلَّغ، فلم يكتفِ بالمقول كما نفعلُ، وإنما قال الفعل الذي أمَرَ به نفسَه، فلم يتدخَّل حتى في تلك اللفظة، وفي ذلك ردٌّ على كلِّ ناعقٍ أو كاذبٍ أو جهولٍ قائل: "إنَّ القُرآن من تأليف محمد"، كما قِيل سابقًا وحكاه القُرآن .

(١) ينظر التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٦٢٥.
(٢) ينظر فى ظلال القرآن سيد قطب ص ٤٦٩٥.

وقوله "أعوذ" هذا فعلٌ مضارع يفيدُ الاستمرارَ، وهو يعني أنْ يظلَّ المسلم معتصمًا بربِّه، عائذًا بمولاه، محتميًا بحِماه، ملتجئ إلى سيِّده القادر المقتدر، لا يَنْسَى ذلك لحظةً؛ حتى لا يفترسه الشيطان، فإذا تحصَّن كلُّ مسلمٍ بالله، واعتصَمَ بمولاه، ولجأ إلى حماه – كان في مَأمَنٍ ومَنجى من هذه الوسوسة، وذلك الشرِّ الوَبِيل .

وحروف السورة الكريمة ترسم لنا صورة الخطر المهلك ،ألا وهو شر الوسواس الخناس ، من الجنة والناس ؛فتراه حيا بمعالمه علي أكمل وجه فمن بداية السورة يلفت سمع القارئ بقطعة موسيقية قوية ،تتمثل فى فعل الأمر "قل" فإن لحرف القاف جرسه القوى الذي يدل على جاذبية هذا الجرس، واتبعه حرف اللام ،الذى يتميز بتمكنه القوى من الأذن فهو من أوضح الأصوات اللغوية فى السمع ، وكذلك التنغيم الذي يكسو هذا الفعل، فهو يزيد وضوحه السمعى ؛لاهتزاز الوترين الصوتيين مع التنغيم عند النطق لا، وزيادة على ذلك أن التنغيم(عنصر مكمل للمنطوق ،لا ينفك عنه ، وأمارة صحته، ووفائه بالمعنى المقصود ،وفقا لنوعيات التراكيب، ونوعيات مقامات الكلام)[١]

وتتوالى التنبيهات علي هذا الخطر العظيم بعد هذه البداية اللافتة ؛ ف(قد أطلق النص الصفة أولا :" الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ" وحدد عمله "الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ "،ثم حدد ماهيته :"مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ" وهذا الترتيب يثير فى الحس اليقظة ،والتلفت ،والانتباه ؛لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته فى أول الكلام ،ولإدراك طريقة فعله التى يتحقق بها شره تأهبا لدفعه أومراقبته)[٢]

(١) ينظر :علم الأصوات ل بشر كمال ص ٥٤٧
(٢) ينظر فى ظلال القران ص ٤٠١٠.

وقد خلق لنا التكرار التركيبي في قوله: ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّـاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ،إِلَهِ النَّاسِ)) والتكرار اللفظي (الناس) في السـورة المباركـة سبكا و تماسكا نصيا متبادلا بين العناصر المكونة للسورة المباركة ، فأوجد التكرار نسقا دلاليا في البيان والتخصيص والتوضيح وحفظ سياق السـورة ومراعاة الذوق العام وبيان الاهتمام والتركيز على الناس، وهـو بـذلك لا يحمل مدلولا واحدا إنما في كل مرة يحمل معنى مختلفا، وتكرار لفظ "الناس "بأصواته فى السورة الكريمة فى فواصلها أسهم كذلك فـى بعـث الراحـة والاطمئنان ؛فإن "للأذن لذة بتكرار الأصوات ،تشبه لذة رجع الصدى.

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي السبب فى تكرير الله تعالى للفـظ "الناس" ولم يأت بالضمير فقال "رب الناس ملك الناس إله الناس "ولم يقـل "رب الناس ومليكهم وإلههم" بـ (أن ذكر الناس مع كل اسم أولى وأحسـن ،ذلك أن كلمة الناس قد تطلق على القليل منهم والكثير وقد تطلـق علـى الجميع .....فلو قال رب الناس ومليكهم وإلههم لظن أنه ملك وإله جماعة الناس المذكورين مع الرب دون غيرهم ،وقد تكون مجموعته قليلة أو كثيرة ،فذكر الناس مع كل صفة لئلا يظن أنه ملك وإله مجموعة دون أخري)[١]

وقوله تعالى "مِنَ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاس" كلمة "الوسواس" على وزن فعلال ، وفعلال المفتوح الفاء يكون اسما بمعنى الوسوسة ،وهو ما يوسوس به الشيطان من هوى النفس وشهواتها ، وقد يكون فعلا بمعنى اسم الفاعل قال الألوسي: (قال بعض ائمة العربية :أن فعلل ضربان :صحيح كـدحرج ، وثنائى مكرر كصلصل .....،ويكون للمبالغة كفعال فى الثلاثـى ،كمـا

(١) ينظر على طريق التفسير البيانى د/فاضل السامرائى ج ١ ص ٤٩ النشر العلمى جامعـة الشارقة سنة ٢٠٠٢م.

قالوا :وطواط للضعيف ،وثرثار للمكثر ،والحق أنه صفة فليحمل عليه ما فى الآية الكريمة من غير حاجة إلى التجوز)[١] (والذي يترجح أنه وصف بمعنى اسم الفاعل يفيد الكثرة والمبالغة)[٢] ؛ ذلك أن الوصف يتناسب مع الوصف المبالغ فيه الثانى "الخناس"،أى كثير الوسوسة والخنوس ، على نحو الصفة الثابتة ،وكأنها مهنة للموصوف "الشيطان" .

واختيار صيغة المبالغة " الوسواس" – فعلال– بدلا من اسم الفاعل "موسوس "لأن لفظة "وسواس" من المفردات التى اختيرت لمحاكاة أصواتها محاكاة طبيعية ،وقد ذكر تلك المحاكاة ابن جنى قائلا: (كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ،ومدوا فقالوا: صر، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا: صرصر....وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير، نحو الزعزعة، والقلقلة والصلصلة، والقعقعة...)[٣]، وكذلك الوسوسة فهى من المفردات التى يتضاعف فيها المعنى بسبب تكرير حروفها.

وكما أن "الوسواس" صيغة مبالغة ،فكذلك جاءت "خناس" صيغة مبالغة من الخنوس ،واختيار وصف الخناس مع الوسواس مناسب له فى المبالغة ، ذلك أن الوسواس من الرباعى كوزن" فعال" في المبالغة يراد به من تكرر منه الخنوس حتى عرف به، قال أبو هلال العسكري:(ذا فعل الفعل وقتا بعد وقت قيل: فعّال)[٤].

---

(١) ينظر : روح المعانى ج ٣٠ ص ٢٨٦.
(٢) ينظر : على طريق التفسير البيانى د/ فاضل السامرائي ج١ ص ٥١٠.
(٣) ينظر : الخصائص لابن جنى ج ٢ ص ١٥٤،و١٥٥.
(٤) ينظر الفروق اللغوية ابو هلال العسكري تحقيق محمد إبراهيم سليم ص ٣٣٠ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع (بدون).

ويتضح من ترادف مفردتين قويتي الدلالة على المبالغة فى وصف المستعاذ منه بأنه ذو خطر شديد.

(وهناك لفتة ذات مغزى فى وصف الوسواس" بالخناس "..فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس، ولكنها من جهة أخري توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل صده ،فهو – سواء كان من الجنة أم من الناس – إذا وجه خنس، وعاد من حيث أتى ،وقبع واختفى ،أو كما قال الرسول الكريم فى تمثيله المصور الدقيق : (فإذا ذكر الله تعالى خنس ،وإذا غفل وسوس)[١]

وحرف السين الذي تكرر فى السورة مرات عديدة له بلاغته الصوتية، فقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة ؛لإبراز هذه الوسوسة التى يخافت بها أهل الجرائم والمكائد ،وما يلقيه الشيطان فى روع الإنسان؛ ليزين له بذلك ارتكاب المعاصى ، وهو أدل بجرسه الصوتى الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفى ،فهو من الأحرُف المتَّصفة بالهمس، وهو يرسُمُ بشكلٍ واضحٍ طبيعةَ عملِ الشيطان الوَسواس؛ حيث يقومُ بعملِه بهمسٍ وخِفَّةٍ وحركةٍ لا صوتَ معها كما يخرجُ حرف السين .

وفي هذا كنايةٌ عن الجُبن والخِداع، وعدم قُدرتِه على المواجهة الحقيقيَّة للإنسان المتَّصِلِ بالله، والموصول بالقُدرة الإلهيَّة، فغاية ما عندَه أنْ يُرى جباناً مخادعًا، لا يَقوَى على الحركة أو الصوت، وقد أعانته على ذلك بعض الأصوات الأخرى التى تقاربت معه مخرجا ،منها حرف الصاد المطبق فى كلمة " فى صُدُور الناس"، الذى يشترك فى كل خصائصه

(١) ينظر فى ظلال القرآن سيد قطب ص ٤٦٩٦.

الصوتية مع صوت السين ،ويزيد عليه الأطباق) [١] ،وهو يعطى جرسا أعلى وسط هذه السينيات المتتالية .

ومن الأصوات التى شاركت السين فى هذه الوسوسة صوت" الواو " وهو صوت شبه مجهور يتردد بين السينيات المتوالية بضم الشفتين ضمات متتابعة ،تكون ذات أثر كبير فى تصوير موقف التحريض الهامس على ارتكاب الآثام)[٢].

وكذلك أيضا حرف السين من الأصوات التى لاحظها الناس فى أصوات أنفاسهم؛ فجعلوها فى بعض الألفاظ المرتبطة بهذه الأنفاس ،ك"نفس"،و"حس" و"ناس"، والوسوسة صوت قريب من النفس ؛فإذا كان من عمل الناس سمع معه النفس .

كما أن لحركة الكسرِ التى تكثر فى السورة إيحاء الخفوت والخفية .

ولما كانت الوسوسة هى موضوع السورة الكريمة ،تكرر حرف السين فى كل آية من آياتها ،حتى صرنا نسمع عند تلاوتها نغما يترجم لنا الوسوسة ،ونحس عند سماعها بجو من الوسوسة ،وهكذا يتآلف المعنى والنغم فى كتاب الله تعالى ويتعاضدان .

وأخيرا ،لهذه السورة العظيمة وضوح سمعى عال ،يوائم ما تحمله من تحذير ،من شر الوسواس الخناس ، وقوام هذا الوضوح هى حروفها وما تتميز به من خصائص ساعدت على إبراز المعنى فى صورة بلاغية ،ولم يكن كل ذلك الأثر الذي تحدثه العناصر الصوتية فى هذه السورة،

(١) ينظر : علم اللغة مقدمة للقارىء العربي لا/ محمود السعران ص ١٧٥.
(٢) ينظر: لغة القرآن الكريم فى جزء عم محمود أحمد نحلة ص ٣٤٨،٣٤٧.

ليكون على حساب المعنى ؛ فقد تبين من خلال البلاغة الصوتية للسورة الكريمة ،كيف تسعى هذه العناصر بما تتركه من أثر ،إلى خدمة المضمون ، فالأصوات اللغوية تسخر جروسها الموحية ، ودلالاتها الذاتية ،فى سبيل دعم المعنى ، فـ" المعنى هو السيد فى التعبير القرآنى "[١]تخدمه الألفاظ الصوتية بما تحققه من آثار عالية وقد أشار إلى ذلك الباقلانى بقوله إن القرآن الكريم (يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عباراته إلى النفس)[٢].

وأخيرا: أحمد الله تعالى على توفيقه لإتمام هذا العمل المتواضع الذى ابتغى به وجه الله تعالى أملا فى ثوابه وعفوه ورضاه

) ينظر : من أسرار البيان القرآنى د/فاضل السامرائى ص ١٦٣ دار الفكر العربي سنة ٢٠٠٩. ١(

) ينظر : إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق / السيد أحمد صقر ص ٦٩ القاهرة دار المعارف (د. ت) ٢(

الخاتمة

الحمد لله الذي أتم علي نعمة الانتهاء من بحثي هذا ، وبتتبع جزئيات هذا البحث ،يفضي بنا إلى استخلاص مجموعة من النتائج ،والتى يمكن إجمالها فى ، النقاط التالية:

- إنّ القرآن الكريم كان ولا يزال يمثل منطلقاً وهدفاً أساسيّا لمباحث علم الصَّوت – في اللغة العربية – يستلهمه ويستمد منه مادّة بحثه، بُغيةَ الوقوف على أسرار معانيه، وذلك منذ باكورة نشأته، وحتى اكتماله عِلما شاخصا، له قواعده وأصوله.
- إنّ كثيراً من علمائنا القدامى والمحدثين كانوا قد تَنبَّهوا إلى أهمية الجانب الصوتي في تشكيل الصورة الفنية. وأشاروا إلى بعضٍ مِمّا تنطوي عليه الأصوات اللغوية والظواهر الصوتية من معاني ودلالات وإيحاءات.
- إنّ الجانب الصوتي في اللغة العربية بصورة عامة، وفي القرآن الكريم بصورة خاصة، عنصر أساسيّ مهم لا يمكن الاستغناء عنه بأي حالٍ من الأحوال في بلوغ المعنى المراد، و الإحاطة به. وبناءً على ذلك إنّ تحليل النصّ القرآني يتطلّب الإحاطة بالمستويات الدلالية المختلفة جميعاً؛ فبالإضافة إلى المستوى اللغوي والصرفي والنحوي والسياقي، هناك المستوى الصوتي الذي يقف على القمّة من هذه المستويات، والذي لابدَّ من الاستعانة به، واتِّخاذه أداةً يُضيفها المفسِّر إلى أدواته العديدة الأخرى في التحليل والتفسير والتأويل.
- إنّ هناك العديد من الظواهر الصوتية التي يمكن أن تتوافر عليها الحروف والحركات والكلمات القرآنية، منفردةً و مركّبة. وهي تتلاءم جميعاً وتتناغم، وفق نظام صوتي وإيقاعي خلّاب في رسم صور القرآن الكريم وتشكيل معانيه.

• هناك علاقة وثيقة ومحكمة بين الجانب البياني والجانب الصوتي في إبراز المعنى. وإن تشكيل الصورة الفنية للجملة القرآنية قائم على امتزاج الصُّورة البيانية بالصورة الصوتية والإيقاعيّة.

إنّ أصغر وحدة صوتية في القرآن الكريم يمكنها أن تمثل مادّة بحثية لها قيمتها الدلالية. فكلّ صوت في هذا الكتاب الحكيم وُضِع موضعه الذي لا يَصلح غيره ليحلَّ محلّه، فإذا وُقِفَ على سرِّه انكشف بعضٌ مِمّا فيه، وخَفِي ما هو أعظم، فإنه ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾.

لقد كان اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلاً يانعاً في القرآن لا للدلالة الصوتية فحسب ، بل لجملة من الدلالات الإيحائية و اللغوية ، و تلك ميزة القرآن الكريم في تخير الألفاظ .

كل لفظ في القرآن الكريم اختير مكانه و موضعه من الآية أو العبارة أو الجملة فإن غيره لا يسد مسدّه بداهة ، فقد اختار القرآن اللفظ المناسب في الموقع المناسب من عدة وجوه ،و بمختلف الدلالات إلا أن استنباط ذلك صوتياً يوحي باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق ، و إشارة أدق ، بحيث يتعذر على أية جهة فنية استبدال ذلك بغيره ، إذ لا يؤدي غيره المراد الواعي منه ، و ذلك معلم من معالم الإعجاز البياني في القرآن .. جرس موسيقي حالم ، و صدى صوتي عميق.

وبعد: فلعلى قد أصبت فيما عرضت ،والله سأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وشفيعا لنا يوم نلقاه ،وحجة لنا لا علينا ، كما أسأله سبحانه أن يلهمنا دائما القول النافع ،والعمل الصالح ،وحسن الخاتمة ،واستغفره سبحانه مما طغى به القلم، وأزل به الفكر ،إنه ولى ذلك والقادر عليه ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فهرس المصادر والمراجع

أولا : - القرآن الكريم :-

- الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى تحقيق مركز الدراسات القرآنية مطبعة الأمانة العامة للشئون العلمية .'
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المسمى بتفسير أبى السعود دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان (دت)
- أسرار البلاغة فى علم البيان – عبد القاهر الجرجانى – علق عيه محمود شاكر – مطبعة المدنى ط٣ ١٩٩٢م
- أسرار التكرارفى القرآن المسمى البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى تحقيق عبد القادر أحمد عطا دار الفضيلة بدون
- أساس البلاغة للزمخشرى تحقيق محمد باسل عيون السود دارالكتب العلمية بيروت لبنان ط ١ سنة ١٩٩٨م
- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الشقيطى – عالم الكتب – بيروت .
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن – للعكبرى – دار الكتب العلمية – بيروت .
- البحر المحيط فى أصول الفقه للزركشى تحقيق د عبدالستار أبو غدة والشيخ عبدالقادر عبدالله العانى .دار الصفوة للطباعة والنشروالتوزيع (بدون)

- بدائع الفوائد ابن القيم الجوزيه تحقيق على بن محمد العمران دارعالم الفوائد للنشروالتوزيع (بدون)
- البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٤م
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادى تحقيق الاستاذ محمد على النجار القاهرة ط٣ ١٩٩٦م
- البلاغة الصوتية فى القرآن الكريم د إبراهيم أبو شادى دار الرسالة للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٨٨م.
- البلاغة الصوتية فى الأحاديث النبوية للدكتور مدحت حسيني ليمونة
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية الدكتور محمد حسين أبو موسى دار الفكر العربى "بدون
- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر(بدون)
- التبيان فى تفسير القرآن للطوسى دار إحياء التراث العربى (بدون)
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر ١٩٨٤
- التعبير القرآن للدكتور فاضل السامرائى ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ بتصرف دار عمار ط ٤ سنة ٢٠٠٦
- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جريرالطبرى تحقيق دعبدالله عبدالمحسن التركى ط ١ سنة ٢٠٠٣م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير – دار المعرفة – بيروت ١٩٨٣م
- التفسير اكبير أو مفاتح الغيب للرازى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ط ٢ ١٩٩٧م
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن الطبرى تحقيق د / عبد الله عبد المحسن التركى مطبعة مصطفى الحلبى بمصر ط١ ٢٠٠م
- الجامع الكبير للإمام الترمذى تحقيق بشار عواد معروف دار العرب الإسلامى ط١ ١٩٩٦م.
- دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجانى – علق عليه محمود شاكر مطبعة المدنى القاهرة ط٣ ١٩٩٢ .
- روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى – للألوسى البغدادى – طبعه وصححه على عبد البارى عطية – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – ١٩٩٤م .
- سرالفصاحة لابن سنان الخفاجى .
- صحيح البخارى –لابن إسماعيل البخارى – تحقيق محمد عبد القادر عطا دار التقوى ط١ ٢٠٠١م .
- صفوة التفاسير– محمد على الصابونى– دار الرشيد – سوريا حلب ط٢ .
- الصناعتين الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى – تحقيق على محمد البيجاوى– محمد أبو الفضل إبراهيم –عيسى الحلبى – ط١– ١٩٥٢م .
- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص –بهاء الدين السبكى – دار السرور بيروت لبنان .

- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق د انبوى شعلان مطبعة الخانجى بمصر ط١ ٢٠٠م .
- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع (بدون)
- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجى بالقاهرة ط٣ ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى – مكتبة الحلبى – القاهرة
- لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين ابن منظور – دار المعارف .
- اللغة العربية وأنظمتها بين القدماء والمحدثين د نادية رمضان النجار .
- ما تفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد تحقيق الدكتور أحمد محمد سليمان مطبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ط١ سنة ١٩٨٨م
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ١٩٩٥م .
- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد دار الكتب العلمية بيروت ط١سنة ٢٠٠١م
- معترك الأقران فى إعجاز القرآن للإمام جلال الدين السيوطى تحقيق محمد على البجاوى دار الفكر العربى .

- المعجم الوسيط أخرجه : إبراهيم مصطفى ،وأحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد على النجار أشرف على طبعه عبد السلام هارون .
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهانى
- النبأ العظيم – عبد الله دراز– دار القلم للنشر والتوزيع – ط٧ ١٩٧٣م.
- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القران الكريم تحقيق د محمد زغلول سلام ،و الاستاذ محمد خلف الله دار المعارف بالقاهرة ط٢
- الوجوه والنظائر فى القران الكريم للدماغانى تحقيق عبد العزيز سيد الأهل دار العلم للملايين ط٤ ١٩٨٣.
- الإيضاح للقزوينى تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ج ١ص ٥٢ار الجيل بيروت ط ٣

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	ملخص	٨٨٤٥
٢.	Abstract	٨٨٤٦
٣.	المقدمة	٨٨٤٧
٤.	التمـهـيـد	٨٨٤٩
٥.	المبحث الأول : سورة القارعة	٨٨٦٦
٦.	المبحث الثانى : سورة التكاثر	٨٨٨٢
٧.	المبحث الثالث (سورة الناس)	٨٩٠١
٨.	الخاتمة	٨٩١١
٩.	فهرس المصادر والمراجع	٨٩١٣
١٠.	فهرس الموضوعات	٨٩١٨